بطولة ملك

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثنيان

العبيكان
Obeikan

بطولة ملك

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

العبيكان
Obeikan

ح عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

بطولة ملك./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان.-

الرياض ١٤٣٩هـ

ص ٢٦٠؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٤-٧٠٢٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص التاريخية العربية - السعودية

أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٨١٩٥٣١ ١٤٣٩/٦٤٩٠

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦ + فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الريا ض ١١٥١٧

www.obeikanretail.com

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

سوق amazon احدى شركات

وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti

دار ضاد للنشر الإلكتروني WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الالكترونية

Google Play

أجهزة amazon kindle

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

تواصل معنا

CONTACT US

مُحْتَوَيَاتُ الْكِتَابِ

الموضوع | **الصفحة**

» مقدمة المؤلف ٧

» الفصل الأول: الفُتُوة والزَّعامة ١١

» الفصل الثاني: الاقتحام والاسترداد ٣٥

» الفصل الثالث: التحدي والمنازلة ٥٥

» الفصل الرابع: تحالف الخصوم ٨٣

» الفصل الخامس: الساحل الشرقي ١٠٣

» الفصل السادس: مُحايد ومحارب ١٢٥

» الفصل السابع: مَعركةُ تَلِد ١٤٣

» الفصل الثامن: المعارك الجبلية ١٦٣

» الفصل التاسع: الشَّمال الجامح ١٨٣

» الفصل العاشر: الصبر ينفد ٢٠١

» الفصل الحادي عشر: العروس والمَهر ٢١٩

» الفصل الثاني عشر: خاتمة البداية ٢٣٩

» المراجع ٢٥٩

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي يُؤتي ملكه مَنْ يشاء، والصلاة والسلام على الهادي المصطفى، وبعد...

فهذه قصةُ بطولة، وسيرةُ شجاعة لملكٍ صارع الفرسانَ، فكان أصبرَهم، وفاوض الدُّهاة، فكان أفطنهم، واستعاد مُلكًا، وبَنَى مجدًا، ووحَّد أُمةً.، وآتاه الله سُلطانًا، فصار نعيمًا لشعبه، وخيرًا للأحفاد والأجيال.

هذا البطل تحدثَت عنه كتب التاريخ، وقالت عنه كتب السِّيَر، وروى مُعاصرُوه الكثيرَ من مواقفه، والعجيبَ من دهائه.

وهـذه الفصـول التـي دوَّنتهـا ليسـت إلا قـراءةً مـن الكتـب التي أرَّخَت للبطل، وسماعًا من بعض المعاصرين له.

وقد كتبتُها بأسلوب قصصي؛ ليقرأها الشباب وغيرهم، فيستعيدوا ذكر هذا العظيم، ويعتزوا بهذا المؤسس، ويفخروا بالمجد الذي ورَّثَه، والتآلف الذي حققه.

إنهـا فصولٌ تروي دهـاء القائد، وفطنة المؤسـس، وبراعة الموحد، وعظمة الرمز، وتحكي الأهوال التي تعرض لها، والأخطار التـي طوَّقته، وتُصوِّر الـولاء الذي كان له عنـد الأجداد والحب الذي كان له عند الحاضرة والبادية.

وهـي تعرض لحلمـه وبطولتـه، وتعكس فطنتـه ونجابتـه، وتـروي عظمتـه في المواقـف الحرجـة، وكيـف عالجهـا! وتُصـور خوفه من الله، واحترامه للعلماء، وتقديره للفرسان، وإكرامه للمخلصين، وتكشف عن صدق نيته وإخلاصه لدينه.

هـذا، وعلـى الرغـم مـن اختـلاف الروايـات حـول بعض الأحـداث، وانفـراد بعض المؤرخين أو الكُتّـاب أو الـرُّواة بهـذه الحادثة أو تلك الرواية، فإني أعرض ما يترجح لديَّ، ولا أقوم بالمناقشة، وردِّ هذه الرواية، أو تلك الحادثة، فلست مؤرخًا، ولا

باحثًا علميًّا يُقرر حقائق تاريخية، أو جوانب علمية، ويلزمه الترجيح والتعليل؛ وإنما قارئٌ نظر في كتب التاريخ التي أرَّخت، ودوَّنَت، ثم عرضَ تلك البطولة من جانب أدبي تاريخي. ولهذا لم أذكر المصادر عند إيراد الأحداث، وإنما اكتفيت بذكر الكتب التي اعتمدت عليها في نهاية الفصل الأخير، حيث إن جميع ما أوردته استقيته من هذه المراجع.

وبعد، فهذا الكتاب سَبَق أن صدر في سلسلة قصصيَّة مُجزَّأة بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة، وأعدتُ جمع تلك السلسلة في اثني عشر فصلًا؛ ليختار القارئ ما يناسبه؛ الكتاب المجموع أو المُجزَّأ، وإنني لأرجو أن يكون هذا الكتاب من الأسباب التي تُذكرنا بالبطل، فندعو له؛ فهو اليومَ أحوجُ ما يكون إلى الدعاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأسكنه فسيح جنّاته.

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

الرياض: ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

الفصل الأول

الفُتُوة والزَّعامة

كان طفلًا ذكيًّا، وشبلًا جسورًا، طويل القامة، مهيب الطلعة، وُلِد في الرياض عام ١٢٩٣هـ، ونشأ في بيت مجد وفضل، وأصل وحسب، وشهامة وكرامة، وزعامة وقيادة.

بَزَّ أقرانه، وفاق رفاقه، يقود الصبيان حين يلعب معهم، ويرأس الأطفال حين يكون بينهم، يأمرهم، فيسمعون قوله، وينصحهم، فيصغون إلى نصحه، يحب الفروسية، ويهوى البطولة

إذا أقبل نظر له الأطفال تحيةً وتقديرًا، وإذا جلس تحلَّق الصغار حوله شوقًا وإعجابًا، فالقيادة له، والزعامة لفريقه.

انقسم الأطفال ذات يوم إلى فريقين، واختلطت أصواتهم، وعلا ضجيجهم، وترددت الأصوات: أنا مع من؟ أنا مع من؟ أما هو فكان يقول: من معي؟ من معي؟ هيّا إليَّ تجمعوا حولي.

إنها طفولة تأبى الانقياد، ونفسٌ طموحة تنشدُ الرِّيادة، وعلامات النجابة تزداد يومًا بعد يوم، وشواهد الزعامة تنمو شهرًا بعد شهر!

التفَّت قلوب الصغار حوله، فصار زعيمهم، إن تجمعوا سألوا: أين هو؟ وإن لعبوا توقفوا: أين هو؟ وإن اختلفوا فهو الحكم، وإن تشاجروا فهو الفيصل، وإن ظلم طفل آخر شكا إليه، وإن جار صبي على زميله أسرع إليه.

يُنقَلُ على لسانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أحسن استعمال البندقية وركوب الخيل وهو في سن الصبا، وأنه كان في السابعة من عمره حاد الطبع، دائم الحركة، لا يستطيع الاستقرار في مكان واحد فترة طويلة.

وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في صباه، وحفظ سورًا من القرآن الكريم، وتلقى بعض أصول الفقه والتوحيد.

وكان يميل إلى سماع تاريخ جده الإمام فيصل بن تركي من بعض الشيوخ المسنين، ونما الطفل، فما إن ميز، وأدرك حتى وجد الأحداث التاريخية تتسارع أمام ناظريه، فأعمامه يتصارعون، وخصومهم يترقبون، ويشهد المواقف الحرجة، الواحد تلو الآخر.

إنها أحداث مُرَّة، ومواقف صعبة يراها تِباعًا، وتتجسد أمامه يومًا بعد يوم.

ويُبصر أمراء حائل من قِبل آل سعود يتحركون حين رأوا ما دَبَّ من خلاف بين أبناء الإمام فيصل بن تركي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويطمعون في الزعامة، ويأخذون في إعداد العُدة وتنفيذ الخُطَّة.

وجاء محمد بن عبدالله بن الرشيد إلى الرياض بحجة الانتصار لفريق من آل سعود، وهو ينوي السيطرة والزعامة.

ودخلها، وأقام سالم بن سبهان أميرًا عليها، وعاد إلى حائل ومعه الإمام عبدالله بن فيصل، وأخوه الإمام عبدالرحمن بن فيصل، والد البطل، وعددٌ آخر من آل سعود بينهم الملك عبدالعزيز نفسه.

وسنة ١٣٠٧هـ أذن ابن رشيد للإمام عبدالله بن فيصل ولأخيه الإمام عبدالرحمن وأسرتيهما أن يعودوا إلى الرياض، وقد عاهد ابنُ رشيدٍ عبدَاللهِ على أن يكون إمامًا في بلاده، ولكن عبدالله تُوفي في هذه السنة بعد وصوله إلى الرياض.

وعند ذلك كتب الإمام عبدالرحمن بن فيصل إلى ابن رشيد يخبره بذلك، ويسأله أن يعزل عامله بحسب العهد المذكور، ولكن ابن رشيد لم ينفذ العهد، وإنما غيَّر عامله في الرياض بعامل آخر، وعهد إليه أن يتخلص من آل سعود.

وكانت الخطة أنه إذا اجتمع آل سعود لدى الإمام عبدالرحمن يوم العيد يأتي عامل ابن رشيد ليسلِّم عليهم، ومن ثم يتم القضاء عليهم في يوم الفرح والسرور.

وعلم الإمام عبدالرحمن بتلك النية، واستعد للأمر، ولهذا ما إنْ قدم عامل ابن رشيد سالم بن سبهان، وجلس قليلًا حتى طلب من الإمام عبدالرحمن أن يدعو أفراد الأسرة للسلام وتهنئتهم بالعيد، وليلقي عليهم كلامًا من ابن رشيد، إلا أن السعوديين كانوا أسرع، فقد وثبوا عليه وعلى رجاله، وبدلًا من أن يباغتهم بادروه بالسيوف، وقتلوا عددًا من رجاله، وأسروا سالم بن سبهان، وقيَّدوه، وجدَّد أهل الرياض البيعة بالإمارة للإمام عبدالرحمن بن فيصل، وذلك في ١١ من ذي الحجة عام ١٣٠٧هـ.

وبعد أن علم ابن رشيد بما فعله الإمام عبدالرحمن بعامله في الرياض زحف بجيشه، وحاصر الرياض أربعين يومًا، ثم دعا أهلها للصلح، فخرج إليه وفد مؤلف من الفتى البطل عبدالعزيز بن عبدالرحمن، الذي كان في فترة الصبا والفتوة آنذاك، وعمه الأمير محمد بن فيصل، والشيخ عبدالله بن عبداللطيف، والشيخ حمد بن فارس، وجرى الاتفاق على أن

يكون الحكم في العارض للإمام عبدالرحمن بن فيصل، وأن يطلقوا عامل ابن رشيد، سالم بن سبهان.

إلا أن هذا الصلح لم يدم طويلًا؛ فقد عاد ابن رشيد للغزو مرة أخرى، وتحرك من حائل نحو القصيم والرياض، واستعد الإمام عبدالرحمن لصده، ووصل ابن رشيد إلى القصيم، فزحف الإمام عبدالرحمن لملاقاة ابن رشيد، ولكنه قبل أن يبتعد كثيرًا عن الرياض جاءته الأخبار أن ابن رشيد فتك بأهل القصيم في معركة المُليداء، واتجه إلى الرياض.

وعند ذلك عاد الإمام عبدالرحمن بجيشه وهو موقن بأنه لا طاقة له بحرب ابن رشيد، وليس أمامه إلا النجاة بنفسه وأهله.

وكانت الهجرة، وكان الفراق قرارًا صعبًا، ولكنه قرار العقل والحكمة، فيوم تغيرت الأرض، وتبدلت الأحوال رأى الإمام عبدالرحمن بثاقب بصره أن لا مقام له في الرياض وأن لا بد من المغامرة، ومن ثم العودة والوثبة.

وكان الفتى النجدي والشبل العربي والفارس القادم يتميز أسًى وحسرةً، ويتنهد حزنًا ولوعةً، فكيف يودع أرضًا

أحبها، ومدينة ألفها؟! ولكنها الأقدار، وما قدَّر الله، وقضى صار، وكان. وظلَّت الذكريات في ذهن الفتى، والآمال في خاطره، فمتى سيعود؟ وكيف سيعود؟ وهل -يا ترى- سيعود؟ إنها الرياض العزيزة، ولعله كان يتلفت، ويردد قول أبي فراس الحمداني:

أَوَدُّكَ وُدًّا لا الزَّمـــانُ يُبِيـــدُه

وَلا النَّـأْيُ يُفْنِيـهِ وَلا الْهَجْـرُ ثالِـمُه

وكأني به، وهو مرتحل مع الركب يناجي نفسه، ويقول: لنا موعد معك أيتها المدينة الحبيبة، ولنا عودة لك أيتها المعشوقة العزيزة.

كيف أنسى طفولتي؟! وكيف أترك عزي ومجدي؟! وكيف أدَع أهلي وعشيرتي؟! أجل، سيكون لي مغامرة، وسوف يكون لي معاودة، فالموعد قريب.

قال الفتى لأبيه: كيف نرحل، وندع مجدنا؟!

فقال أبوه: صبرًا يا بنيَّ.

قال الفتى: وكيف نصبر، ونحن أهل حقٍّ؟!

فقال الأب: الصبر طريق الفرج.

قال الفتى: وإلى متى؟!

فقال الأب: إن مع العسر يسرًا، وإن من صبر ظفر.

ولله دَرُّه من أب! فكأنه يقرأ قول الشاعر الأبيورديِّ:

تَنَكَّرَ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرِ أَنَّنِي
أَعَزُّ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَهُونُ

فَبَاتَ يُرِينِي الخَطْبَ كَيْفَ اعْتِداؤُه
وبِتُّ أُرِيه الصَّبْرُ كَيْفَ يَكُونُ

وبعد ذلك قال الفتى لأبيه: لكن الحزم أبو العزم، أبو الظفرات.

قال الأب: ماذا تقول؟

قال الفتى: هو ما سمعت يا أبي.

فقال الأب: وماذا بعد؟!

قال الفتى: والترك أبو الفرك، أبو الحسرات.

فقال الأب: إنك -إن شاء الله- الأمل، وإنك الغد.

قال الفتى: لا تقلق يا أبي.

وانطلقت القافلة تتهادى، وكأني بالإبل، وقد سالت بأعناقها الأباطح، والرجال يتلفتون، ولسان حالهم يردد قول الشريف الرَّضيِّ:

وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فَمُذْ خَفِيتْ
عَنْها الطُّلُولُ تَلَفَّتَ الْقَلْبُ

أما الصغير فكان رافع الرأس، سارح الخيال، يفكر في العودة، ولكنها عودة الشجعان وأوبة الفرسان، ولعله كان يردد قول الشاعر:

فَواللهِ ما فارَقْتُهُمْ قالِيًا لَهُمْ
وَلَكِنَّ ما يُقْضَى فَسَوْفَ يَكُونُ

وسار الركب إلى المجهول، إلى الصحراء، ينشد المأوى، ويطلب الأمان، وأحسبه يتغنى بقول الشاعر الشَّنفرى الأزدي:

وَفِي الأَرْضِ مَنْأى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى
وَفيها لِمَنْ خافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

لعمرُكَ ما في الأَرْضِ ضِيقٌ عَلَى امْرِئٍ
سَرَى راغِبًا أَو راهِبًا وهْوَ يَعْقِلُ

وعاش الشبل مع أبيه في قفار تقطنها قبائل من آل مُرَّة، وأخرى من العجمان في شمالي الربع الخالي قرب يبرين التي تبعد عن الأحساء إلى الجنوب مئةً وستين ميلًا[1].

وامتد المقام نحو سبعة أشهر، وصهرته الصحراء، وذاق مرارة العيش، وكَوَته رمال الربع الخالي، وهو في ميعة الصبا.

وفي الصحراء ألف الخشونة، وذاق القسوة، وتعلم الصبر والشدة، وسامر النجوم، وناجى الليل، وصاد الظباء.

وكأني به يتغنَّى بأنشودة الصحراء مع شاعرها الشَّنفرى، حيث يقول:

وَإِنِّي كَفَانِي فَقْدُ مَنْ لَيْسَ جازِيًا
بِحُسْنَى وَلا فِي قُرْبِه مُتَعَلَّلُ
ثَلاثَةُ أَصْحابٍ: فُؤادٌ مُشَيَّعٌ
وَأَبْيَضُ إِصْليتٌ وَصَفْراءُ عَيْطَلُ[2]

---

(١) الميل: ١٦٠٩ أمتار.

(٢) الأصحاب الثلاثة هم: فؤاد مشيَّع: قلبٌ شجاع.
أبيض إصليت: سيفٌ مجرَّدٌ.
صفراء عَيْطل: نِبال طويلة وصلبة.

وبعد صبر وعناء، وشدة وبلاء، وبطولة وقسوة انتقل الفتى إلى قطر وإلى البحرين، وقد تجلت شخصيته، وبرقت فطانته في الكثير من المواقف... فذلك الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، حاكم البحرين يلاطف الفتى الشهم عبدالعزيز، ويسأله مداعبًا: هل المقام بقطر أفضل أم بالبحرين؟!

فيجيب الشبل بصراحة وجرأة:

لا، هنا ولا هناك، وإنما هنالك.

فيقول الشيخ عيسى: أين؟!

فيقول البطل: في الرياض، ففيها خير مقام، وفيها خير بقاء، فهي مدينة الأهل والأجداد.

وصفَّق الشيخ عيسى إعجابًا وإكبارًا، وابتسم تحية وتقديرًا، وقال:

إن لم تخني فراستي -ولا أظنها- فسيكون لهذا الغلام شأن ومجد.

وصدقت نبوءته فيما بعد، وتحققت فراسته فيما ظنَّ؛ فقد دارت الأيام دورتها، ومضت أسابيع، وامَّحت شهور، وكان هذا البطل أحدوثة التاريخ، وأنشودة الأجيال.

وعام ١٣١٠هـ انتقل الإمام عبدالرحمن إلى الكويت، واستقر فيها، وقضى الفتى عبدالعزيز قرابة عشر سنوات في تلك البلاد، شهد خلالها أحداثًا ومواقف بَنَتْ شخصيته، وكوَّنت له حصيلةً من الثقافة السياسية العملية، فقد أنس فيه الشيخ مبارك بن صباح صفات الألمعي اللبق، فقربه منه، وفسح له المجال لحضور مجالسه، والاستماع إلى أحاديثه مع ممثلي الحكومات الإنجليزية، والروسية، والألمانية، والتركية.

ويعيش الفتى في الكويت، والطموح يزداد، والأمل ينمو، وهمه عودة المُلك، وهاجسه رجعة المجد، وتبلغ به الجرأة، وهو في طور الفتوة أن يقنع بعض الفتيان بالسير إلى نجد وإثارة العشائر على ابن رشيد؛ فامتطى بعيرًا خرج به مع أصحابه، ونزلوا ببعض القبائل، فلم يجدوا من يسمع لهم، فيئس رفاقه، وانصرفوا عنه، وعاد وحده ماشيًا، وقد ظلع بعيره، وأَحَبَّ أن يكتم خبر إخفاقه لولا أن رفاقه سبقوه، وتحدثوا بالأمر.

وذهب الفتى إلى أخته الكبرى (نورة) وقصَّ عليها القصة، فهتفت به مستنهضة عزيمته، وقالت له: لا تندب حظَّك كالنساء، إن خابت الأولى والثانية فسوف تظفر في الثالثة، وابحث عن أسباب فشلك، واجتنبها.

ولله درُّها من امرأة حرَّة أبيَّة سليلة مُلك، ووارثة مجد، وتربية الإباء والعز؛ فقد شدَّت من عضده، وقوَّت عزيمته.

وقد ظلَّ الفتى يذكرُ أخته وتحريضها له على البطولة والإقدام، وأصبح ينتخي بها في غمرات الحرب وساعات الهول، فيهتف، ويقول: أخو نورة، أنا أخو الأنور.

ويتميز الفتى، ويتنهد الأسد، وتضيق الكويت بفارس الغد وسليل المجد، ويُكثر من التعريض لأبيه بعزمه على المغامرة، وبتصميمه على المباغتة، ويصدُّه الأب، ويردُّه الوالد، ويستبد به القلق ذات ليلة، ويجفوه النوم، ويذهب إلى أبيه، ويُحادثه، ويُحاوره.

يقول الفتى: أبتاه، إلامَ الانتظار؟

فيقول الأب: وماذا ننتظر يا بُني؟

فيقول الفتى: الرياض؛ العودة إلى الرياض.

فيقول الأب: وكيف نعود يا عبدالعزيز؟

فيقول الفتى: قاتل يا أبي، واطرد خصومنا، فإن أحدًا ليس أحقَّ منك بالرياض.

فيقول الأب: كفاك يا بنيَّ، تمسكًا بالأوهام؛ فإن محمد بن رشيد لديه قوة ومنعة، وهو يسيطر على البلاد الممتدة من صحراء سوريا في الشمال إلى رمال الربع الخالي في الجنوب.

فيقول الفتى: ولكن هناك كثيرًا من القبائل الموالية لنا تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليه، وتترقب منا الوثبة والمبارزة له.

فيقول الأب: إن هذه القبائل ترتجف هلعًا أمام صرامته وبأسه، ولن تجرؤ على ذلك.

فيقول الفتى: وما العمل إذًا يا أبتاه؟!

فيقول الأب: أن تذهب الآن، فتنام، وسوف نبحث الأمر في وقت آخر.

ويعود الفتى إلى فراشه، ولكن أنَّى له أن ينام! فالنفس كبيرة، والطموح أكبر، وكأن المتنبي يقصده بقوله:

وَإِذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا

تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجْسامُ

وكانت الذكرى الأليمة رفيقة أفكاره، وسميرة أحلامه، وصار يقرأ، ويفكر في ملك آبائه وأجداده، إن جلس أمام البحر ناجى أمواجه وشُطآنه: متى نعود؟ وإن نظر إلى الصحراء فهواجس المُلك المسلوب تطارده، إنه يعايش الأمراء والعلماء، ويجلس ساكتًا متأدبًا في مجلس الشيوخ، وهو يفكر في ملك آبائه وأجداده. إنه دومًا يرمق السيف بنظرة كلها شوق وأمل.

وصار الفتى يستحث الزمان، ويُحدِّث رفاقه حديث الواثق بالعودة، الجازم بالأوبة، ويبادله المحبون المشاعر، فقد سار ذات يوم في الكويت ومعه رفيقٌ له، ودار بينهما الحديث الآتي:

قال الرفيق: أدعو الله أن تعود يا عبدالعزيز، إلى الرياض، وأن تضربني هناك.

قال عبدالعزيز: ولماذا؟

قال الرفيق: لأني أرى فيك المستقبل القادم، وإذا ضربتني فأنت الإمام.

قال عبدالعزيز: نعود، ونُكرمك، ولا نضربك.

وتدور السنون، ويعود عبدالعزيز، ويهمُّ ذات مرة بضرب هذا الرجل، فيُذكِّره، فيبتسم عبدالعزيز، ويشكر الله.

وتتطور الأحداث، ويتوفى محمد بن عبدالله بن رشيد عام ١٣١٥هـ، ويخلفه في الحكم ابن أخيه عبدالعزيز بن متعب بن رشيد الذي لم يكن يتمتع بما كان يتمتع به سلفه من حنكة سياسية، فيطمع في الاستيلاء على الكويت، وتدور رحى الحرب بين ابن رشيد وابن صباح، وقبل دوران الحرب، اهتبل الفتى البطل الفرصة، وتقرر أن يقوم هو منفردًا بالسير نحو الرياض حتى يضطر ابن رشيد إلى أن يقاتل جيشين في مكانين مختلفين، وتم ذلك، فما إن زحف الشيخ مبارك بقواته عام ١٣١٨هـ، ووصل الشوكي الذي يبعد عن الرياض نحو مئة وستين ميلًا شمالًا بِمَيْلٍ قليل نحوَ الشرق، حتى انطلق الملك عبدالعزيز بفرقة من ذلك الجيش نحو الرياض، وقد نجح في دخولها دون صعوبة، وهلَّل أهلها، واستبشر سكانها، ولجأت حامية ابن رشيد إلى حصنها المسمى المصمك.

وشرع البطل الظافر يحفر نفقًا إلى الحصن، وباشر رجاله العمل، وكاد الحصن يسقط لولا أن الأخبار وصلته بهزيمة ابن صباح في معركة الصَّريف، ولهذا قرر إخلاء الرياض بعد أن أيقن بعودته مرة أخرى، وعاد برجاله إلى الكويت، فالرأي قبل شجاعة الشجعان.

وعاد البطل إلى الكويت، وفي النفس حسرة، وفي الفؤاد لوعة، فقد ذاق حلاوة النصر، وكَحَّل عينيه بالرياض موطن الأهل، ومكان الطفولة، وقاعدة الحكم السعودي، وبات قلبه يشتعل ونفسه تقوم، وتقعد؛ فقد ازدادت معرفته بالرياض، وظهر أمام الناس بأنه الفارس المنقذ، والبطل القادم، وكيف يصبر على الضَّيم؟! ولهذا بات يُكثر من التعريض لأبيه بالعزم على المغامرة الثانية، وكان الأب يصدُّه، ويزجره؛ خوفًا عليه وشفقة.

وذات مساء لقي أباه على انفراد خارج المدينة، فهَّم بالحديث، وأعرض الأب، وأصرَّ الابن، وألقى عباءته على الأرض وعروقه تنتفض، وقال: اجلس يا أبي.

إنه أسلوب لم يعتده عبدالعزيز، فهو البار بأبيه، ولكنها النفس الطموحة، والآمال المتوهجة، والزعامة المبكرة، والأمر الجلل، وجلس الأب وأمامه الشعلة المتوقدة والجوهرة المتلألئة؛ ابنه عبدالعزيز.

قال الابن: أبتاه، أنت بين أمرين: إما أن تأمر أحد عبيدك بانتزاع رأسي من بين كتفَيَّ، فأستريح من هذه الحياة، وإما أن تنهض من تَوِّك، فلا تخرج من منزل شيخ الكويت إلا بتأييد خروجي للقتال في بطن نجد.

قال الأب، وقد رأى تصميم ابنه: على بركة الله، قالها متململًا، قالها قلقًا.

وذهب الأب إلى مبارك الصباح، وأخبره الخبر، وطلب تأييده وتسهيل الأمر.

وتلقَّى البطل الموافقة، فاهتز فرحًا، وهلل طربًا، إنها العودة، إنها المغامرة، واستعد للسفر.

وقال الأب: بُنَيَّ، لا أريد صدَّك، ولا أودُّ منعك، ولكن كما ترى نحن في غربة، وحالنا يقتضي استخدام الحكمة في إدارة أمورنا.

قال الابن: لقد عزمت، وتوكلت على الله.

قال الأب: أسأل الله لك العونَ والظفرَ.

وانطلق البطل من الكويت عام ١٣١٩هـ، ومعه عددٌ من أفراد أسرته وأقاربه ومؤيديه لا يجاوزون أربعين رجلًا.

وسار، وكله ثقة بالله، واعتماد على الله، يقول أحد رفاق الرحلة: حين تجاوزنا أسوار الكويت، أناخ عبدالعزيز ركائبه، ثم اغتسل، ويمَّم القبلة، وأخذ يصلي، ويدعو ربه بما لا نسمعه،

ونحن وقوف ينظر بعضنا إلى بعض، وقد ملأ المشهد جوانحنا غبطة، وتفاؤلًا كبيرًا بأن رحلتنا موفقة، إن شاء الله.

ومضى المغامر، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ولكن عقله سابقٌ لسنه، فقد كان بعيد النظر، عظيم الهدف، جريئًا في المغامرة، سريعًا في المباغتة، وأراد أن يلفت أنظار القبائل إليه، فقام بغارات جريئة على بعض العشائر، ولحق به نحو ألف راكب ذلول وأربع مئة خيّال، واجتاز بهم الصمّان والدهناء، وأغار على بيوت لقبائل من أعوان ابن رشيد، ثم عاد إلى أطراف الأحساء، وذاق البطل حلاوة النصر، وتوافد عليه عدد كبير من رجال القبائل.

ثم انطلق البطل مرة أخرى، فوصل إلى سدير، وأغار على إحدى القبائل الموجودة هناك والموالية لابن رشيد، ثم عاد، ونزل ثانية بأطراف الأحساء، وازداد جيشه حتى أصبح ألفًا وخمس مئة ذلول وست مئة خيّال.

وتحدثت القبائل بهذه الانتصارات، وتناقل الرواة هذه البطولات، فتسارع الكثير من الرجال إليه يتبعون الظافر، ويؤمِّنون المنتصر.

وقلق ابن رشيد حين سمع الأخبار، وأرسل رسولًا إلى الشيخ قاسم بن ثاني يستنهضه، ويستحثه على هذا العدو الجديد، وكتب إلى القادة الأتراك في البصرة يذكر استفحال أمر ابن سعود، ويقترح طرده من نواحي الأحساء، وتحريض البوادي عليه. فأجاب الأتراك الطلب، فتفرق من صَحِبه في تلك المناطق، فبعضهم ذهب يطلب المرعى لمواشيه، وبعضهم لا يريد أن يتعرض لسخط الدولة. ولم يبقَ بجانبه إلا الذين رافقوه من الكويت، وعدد لا يبلغ نصفهم ممن التحقوا به بعد ذلك.

واستمر ابن رشيد في المتابعة والكتابة والملاحقة والمطاردة، وصار يستنجد الأتراك في احتلال الكويت، ويحرضهم على آل سعود، وكتب الإمام عبدالرحمن مشتركًا مع الشيخ مبارك إلى البطل المغامر عبدالعزيز يدعوانه للتوقف عن الإغارة، ويحذرانه العواقب، ويسألانه الرجوع إلى الكويت.

وتوجه البطل بالرفاق المخلصين إلى يَبْرين، وفي آخر يوم من رجب عام ١٣١٩هـ نظر، فلم يجد إلا هؤلاء الرجال الصادقين، وجمعهم في مجلس للمداولة، وقرأ عليهم كتاب أبيه، ثم قال: لا أزيدكم علمًا بما نحن فيه، وهذا كتابُ والدي يدعونا للعودة إلى الكويت قرأته عليكم، ومبارك ينصحنا بالعودة، أنتم

أحرار فيما تختارونه لأنفسكم، أما أنا فلن أُعرِّض نفسي لأكون موضع السخرية في أزقة الكويت، ومن أراد الراحة ولقاء أهله والنوم والشبع فإلى يساري، إلى يساري.

كلماتٌ من القلب، وعباراتٌ من الفؤاد، تصميمٌ وعزيمةٌ، وإرادةٌ وبطولةٌ، وأحسبه يقرأ عليهم قول أبي فراس الحمداني:

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا

لَنَا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أَوِ الْقَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي المعَالِي نُفُوسُنَا

وَمَنْ خَطَبَ الْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِها المهْرُ

وتواثب الأربعون، بل الستون، إلى يمينه، وأدركتهم العزَّة، فاستلوا سيوفهم، وصاحوا مُقسمين على أن يصحبوه إلى النهاية، والتفت عبدالعزيز إلى رسول أبيه -وهو حاضر يشهد- وقال له: سلِّم على الإمام، وخبِّره بما رأيت، واسأله الدعاء لنا، وقل له: موعدنا إن شاء الله-في الرياض.

وبات البطل يفكر، ويدبر، كيف الهجوم؟ وكيف الانطلاق؟ ومتى يكون الرحيل؟ ومتى يكون الوصول؟ عقلٌ ناضجٌ، ورأيٌ حازمٌ، وبطلٌ ساهرٌ. وكانت الخطة أن يغيب عن الأنظار، وأن

تنساه الرواة، وأن يظن الناس أن الصحراء ابتلعت عبدالعزيز ورفاقه، وأن الرمال طمرت البطل وأصحابه. ومضت خمسون ليلة وهم على تخوم الربع الخالي من غير أن تشاهَد لهم راية، أو يُسمع عنهم حكاية، واطمأن ابن رشيد، وسرَّح الكتائب التي كان قد حشدها للبطل القادم، فقد تفرَّق رجاله، وانقطعت أخباره.

وكانت خطة عبدالعزيز أن يتوجه إلى الرياض، ويباغتَ حاميتَها، ويفاجئ حراسها، ويتحدى ابن رشيد، وينازل خصمه العنيد، فإما حياة كريمة، أو ميتة شريفة، وانطلق وهو يعلم أن الرياض تحنُّ إليه؛ فأهلها رجاله، وسكانها أنصاره، يتشوقون لمقدمه، ويتلهفون لوصوله.

وتحرك البطل برفاقه من يَبرين في العشرين من رمضان عام ١٣١٩هـ، واتجه إلى الرياض؛ يختفون نهارًا، ويسيرون ليلًا، وأدركه العيد في موضعٍ يقال له: أبوجفان على طريق الأحساء، فعيَّد فيه، ثم رحل منه، ولم تغب شمس الرابع من شوال إلا وهم على مشارف الرياض الجنوبية الشرقية، وهناك أخذ القائد يضع خطة الدخول إليها والسيطرة على مقاليد الأمور.

☚ وفي الفصل القادم عرض للبطولة والاقتحام، وبسطٌ للتضحية والإقدام.

العبيكان للاستثمار
Obëkan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obëkan Publishing

مـن إصـداراتنـا

تواصل معنا
CONTACT US

الفصل الثاني

الاقتحام والاسترداد

كان سكان الرياض يطلبون العدل، وينشدون الأمان، ويتهامسون فيما بينهم بما يُعانون، ويقاسون من عامل ابن رشيد، وذات ليلة بعد صلاة العشاء اجتمع جاران في منزل أحدهما، وصارا يتحاوران:

قال الأول: أراك يا فلان، سارحًا تفكر، وأجدك مُطرقًا تتأمل، ترفَّق بنفسك، ودعك والهموم؛ فإن الهم قاتل وفاتك، إنه المدمر، وجالب الشيب قبل أوانه، إنه كما قال المتنبي:

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحافَةً

ويُشِيبُ ناصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

قال الثاني: إن كُنتُ مهمومًا، فإني أعلم أنك أكثر همًّا، وأعرف أنك أكبر غمًّا، ولكن يا أخي، لكل شيء نهاية، فها هي الرياض مُضطربة قلقة، إنها جريحة تشكو جراحها، إنها مكلومة تئن من ظُلمها. ذلك جارنا رحل، وتعلم أن إبراهيم يتعذب، إنه يجمع الريالات الأربعة التي ألزمه بها عجلان عامل

ابن رشيد وأميره على رياضنا الغالية، إنه يقترض من هذا عشر هللات، ومن ذاك عشرة قروش، لقد باع بقرته التي تُغذي أطفاله وتجلب غَلَّتَه التي جادت بها مزرعته، لقد رأيته بالأمس، ورثيت لحاله؛ إنه كما قال الرصافي:

لَهُ رَجْفَةٌ تَنْتابُه وَهْوَ واقِفٌ

عَلَى جانِبٍ وَالْجَوُّ بِالْبرْدِ يَلْسَعُ

إنها القسوة والظلم، والويل للظالمين إذا جاء الحق، وزهق الباطل.

قال الأول: صاحِ، هوِّن على نفسك؛ فالأمل يزداد، والفرج قاب قوسين أو أدنى، وإن مع العسر يسرًا، وإن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟

قال الثاني: ماذا تقول؟ بشرني، طمئنِّي!

قال الأول: ألم تعلم أن الشبل قادم، إن عبدالعزيز، الابن الأكبر للإمام عبدالرحمن الفيصل آل سعود، جاءنا في العام الماضي، ورأينا شجاعته وجُرأته.

قال الثاني: أوَتظن أنه يعود؟

قال الأول: أجزم بذلك، وأوقن؛ إنه بطل لا يقبل الضيم، إني رأيته العام الماضي، ورأيت في عينيه برق الفطانة، وشاهدته يتوقد بطولة وشجاعة، إنه الأسد الذي نترقبه، والذي قال فيه المتنبي:

يَطَأُ الثَّرى مُتَرَفِّقًا مِنْ تيهِهِ
فَكَأَنَّهُ آسٍ[1] يَجِسُّ عَلِيلا

وافترق الرجلان، وما هي إلا أيام، وإذا بالأسد يَلِج المدينة والناس في غفلة، فقد أغلق الناس في الرياض أبواب دُورهم، وأرخى الليل أردانَه، وهدأت الحركة، واستغرق النوّام في مساكنهم، وما دار بخَلَدهم تلك الليلة أن الفارس قادم، وأن البطل هاجمٌ، وأن الضيغم متوثب، ولو علموا لهبُّوا يصافحونه، ولو عرفوا لسهروا يترقبونه.

وكان عبدالعزيز في الناحية الشرقية الجنوبية من المدينة يدبر، ويخطط، يزأر، ويثور، يقوم، ويقعد، يستحث الليل ويَنشد الظلام، يطلب الستر، ولا يريد أن ينكشف أمره للعدو المحتل، واقترب الأجل، وحان الموعد، ودلفت الشمس للمغيب، فقسَّم البطل رفاقه إلى فرقتين:

---

(١) الآسي: الطبيب.

الأولى: تتكون من عشرين رجلًا تبقى عند الإبل والمؤن، وعليها أن تنضم إلى بقية الرفاق متي تلقَّت إشارة التقدم.

أما الفرقة الثانية فسار بها نحو المدينة، ووصلوا مزارعها، وفي إحدى المزارع أبقى البطل من رجاله ثلاثة وثلاثين رجلًا بقيادة أخيه محمد، وأمرهم بالانتظار في المزرعة حتى تصل إليهم إشارة منه بالحركة.

وانطلق الأسد لا يهاب المنيَّة، وسار إلى الموت أو المجد، وقال لأخيه وأعوانه: لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن سوف أنطلق بنفسي مع رجال ستة هم: عبدالله، وعبدالعزيز، وفهد أبناء جلوي بن تركي، وناصر بن سعود آل فرحان، وسبعان، والمعشوق، وإذا لم يصلكم رسولٌ منا غدًا فأسرعوا بالنجاة، واعلموا أننا قد استشهدنا.

وكأني بأخيه ورفاقه يدعون، ويبتهلون، ويرددون قول أبي فراس الحمداني:

وَأَنْتَ أَشَدُّ هَذا النَّاسِ بَأْسًا

وَأَصْبَرُهُمْ عَلَى نُوَبِ الْقِتالِ

وأسرع المغامر ورفاقه الستة تَحفُّ بهم الأخطار، وتحوطهم الأهوال، ودخل الرياض التي أحبَّها، وأحبَّته، وما غابت صورتها عن ذاكرته، وما امَّحت قصورها من مخيلته، دخلها بسهولة ويسر؛ فهو ابن المدينة يعرفها، وتعرفه، حتى إن بيوتها تكاد تُسلِّم عليه، وطُرقاتها تكاد تنطق باسمه، وتُهلِّل بمقدمه.

أجل، دخل الرياض والظلام دامس، ووصل المدينة، والليل ساترٌ، ولو كان في الصباح لغرَّدت البلابل باسمه، وتسابق الناس لمصافحته.

لقد كان قويَّ الإرادة، فالقلب منه صارمٌ، والفؤاد منه باترٌ، هدفه الأول أن يقتحم قصر المصمك، الحصن المنيع، وبيت المنيَّة، فهو المعقل الذي يحتمي فيه أمير الرياض من قِبَل ابن رشيد، واسمه عجلان بن محمد العجلان.

إنه عرف منذ قدومه ومغامرته في السنة الماضية أن أمير الرياض من قِبَل ابن رشيد يلجأ دومًا إلى الحصن، وأنه يحذر المجابهة، ويخشى الخروج.

لقد حاول في العام الماضي يوم جاء غازيًا الرياض اقتحام قصر المَصمَك، فوجده مغلقًا والحامية في داخله، وشرع

يحفر نفقًا إليه، ووجد من أهل الرياض الفرحة بمَقدمه والعون والمؤازرة؛ فقد شاركوه في حفر النفق، وتوافدوا عليه، وصاروا يأتمرون بأمره، ويسمعون قوله.

لقد استدعى في مَقدمه الأول حمد بن عبدالله العبيكان، وصالح بن يوسف العمران، وهما من أهالي الرياض، وأمرهما أن يبلِّغا عجلان وقائد الحامية عبدالرحمن بن ضبعان أن ابن رشيد يواجه حربًا مع ابن صباح، وأنه مهزوم لا محالة، ويطلبا منه الاستسلام، وقد بلَّغ الرجلان الرسالة، وامتثلا لأمر البطل، وواجها عامل ابن رشيد، ولكنه رفض، وظل معتصمًا في حصنه.

إن هذه المشاعر والعواطف التي يعلمها، وهذا الحصن الذي يعرف مداخله جعلته يلجأ فور دخوله الرياض إلى البيوت التي تُقارب جدار قصر المصمك، وكان يسكن أحدها فلاحٌ يُتاجر في البقر اسمه جُوَيسر، وكان عبدالعزيز يعرفه، فتوجه البطل نحو هذا البيت، وطرق الباب، وأجابته امرأة من الداخل: من الطارق؟

فقال عبدالعزيز: أنا ابن مطرف، أرسلني الأمير عجلان لأطلب من جويسر أن يشتري له بقرتين.

فقالت المرأة: يا هذا، اتَّقِ الله، واذهب، فما هذا وقت بيعٍ وشراء، ولا أحسبك إلا تريد سوءًا ومنكَرًا.

فقال عبدالعزيز: لا، والله يا خالة، لست أسعى لسوءٍ أو فسادٍ؛ بل أريد صاحب البيت.

ودار الحوار، وطال النقاش.

وقالت المرأة: إذا كنت تريده حقًّا فعُد إليه في الصباح. فقال عبدالعزيز، وقد نفد صبره: ويلٌ لأبيكِ من غضبة عجلان إذا لم يُفتَح هذا الباب.

وسمع صاحب الدار (جويسر) هذا الكلام، فأسرع، وفتح الباب، وعند ذاك دفع عبدالعزيز الباب بقوة، ووضع رِجله في الداخل، وأمسك بالرجل، وقال له: إذا تكلمت قتلتك في الحال، وتبعه أصحابه الستة، وأغلقوا الباب من ورائهم. وعرفت النسوة عبدالعزيز، وصِحْنَ: عمنا عبدالعزيز، عمنا عبدالعزيز. وقد عرفن عبدالعزيز؛ لأن فيهن من كنَّ خادمات يعملن عند آل سعود قبل الرحيل والهجرة إلى الكويت.

فقال لهن: لا بأس عليكنَّ إذا سكتُّنَّ. قال هذا، وقد أدخلهن في غرفة من غرف الدار، وأقفل عليهن الباب. ثم

انتقل البطل ورفاقه من ذلك البيت إلى منزل آخر مجاور لبيت عجلان، وتسلقوا جداره وقلوبهم ثابتة، وعزائمهم صامدة، وكأنهم الأسود الضواري، وكأن الخوف يخافهم، والوجل يرهبهم، وأحسبهم يرددون قول المتنبي:

يُحاذِرُني حَتْفي كَأَنِّي حَتْفُه

وتَنْكُزُني الأَفْعَى فَيَقْتُلُها سُمِّي

واقتاد عبدالعزيز ورجاله سكان ذلك البيت إلى واحدة من غرفه، وأغلقوها عليهم، وبعد أن اطمأنوا إلى سلامة الموقف ونجاح الخُطة أرسل عبدالعزيز إلى أخيه محمد ورفاقه أن يلحقوا بهم، ونجح الأمير محمد بن عبدالرحمن ورفاقه في الوصول دون أن يشعر بهم أحد، واجتمعوا كلهم في ذلك المكان، ثم تسلق البطل عبدالعزيز مع رفاقه الستة إلى بيت الأمير عجلان.

ودنا البطل من اللحظة الحاسمة، وقَرُب الهزبر من المصارعة الفاصلة، وجالوا في أرجاء البيت، وأمسكوا الخدم، وكمَّموا أفواههم، وبلغوا غرفة عجلان، ودخلها المغامر ومعه رجل يحمل شمعة، ووجد في الغرفة شخصين نائمين في فراش واحد، ولم يشُكّ عبدالعزيز أنهما عجلان وزرجته، فأقبل عليهما، ورفع الغطاء، وقد وجَّه بندقيته، ووضع إصبعه على

الزناد، ولكن اتضح أن الذي في الفراش زوجة الأمير وأختٌ لها، فاستيقظتا، وقالت زوجة عجلان، وكأنها لا تصدق عينيها: من؟ أنت عبدالعزيز؟

فأجابها: نعم، أنا هو.

إنها تعرف الملك عبدالعزيز، فهي من أهل الرياض، وأبوها وعمها كانا خادمين عند آل سعود قبل رحيلهم من الرياض.

قالت المرأة: من تبغي؟ قال: أريد عجلان، ولا سواه.

قالت: إني أخشى أن يقتلوك يا عبدالعزيز.

قال: ما سألناك عن هذا الأمر، إنما نريد أن نعرف متى يخرج عجلان من الحصن الداخلي؟

قالت: إنه لا يخرج إلا بعد طلوع الشمس بساعة، وإنه يبيت على الأكثر في القصر الداخلي، وبينه وبين منزله هذا ساحة فيها مرابط خيله، ومن عادته أن يخرج بعد طلوع الشمس، فيستعرض الخيل، ثم يأتي إلى هذا المنزل، فيتناول طعام الإفطار، ثم ينصرف إلى أعمال الإمارة.

قال عبدالعزيز: هذا كل ما نبغيه.

وساق رجالُه المرأتينِ إلى غرفة، وحبسوهما فيها، ثم فتحوا فتحةً إلى البيت الذي فيه بقية أعوانهم، واستدعى عبدالعزيز أخاه محمد ومن معه من الرجال، واجتمعوا كلهم في بيت عجلان، وتحقق هذا الإنجاز وهذه الخطوات والساعة لم تبلغ الثانية بعد منتصف الليل.

ولما اكتملوا في البيت أكلوا التمر، وشربوا القهوة، وناموا قليلًا، ولله درُّهم من رجال، قلوب ثابتة، وعزائم ماضية، وشجاعةٌ تهزأ من الخطر، وتسخر من الخوف، فأكلٌ وشربٌ ونومٌ، والمنيَّة أمامهم، والأهوال تحيط بهم، ولا أحسب أن عبدالعزيز سينام، ولكنه كما قال الشاعر:

يَنامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي
بِأُخْرَى المَنايا فَهْوَ يَقْظانُ نائِمُ

وطلع الفجر، ونهض عبدالعزيز، وصلَّى بهم، وجلس يُسبِّح، ويبتهل، والتفت إلى رفاقه بعد ذلك يتحدث إليهم حتى طلعت الشمس، وكان ذلك يوم الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢/١/١٥م.

وبعد شروق الشمس بقليل رأى الجميع بوابة القصر تُفتَح، والخدم يخرجون منها، والخيل تُقاد عبرها إلى الساحة التي أمامها، وهنا انقضَّ الصَّقر ورجاله، وهجم الليث وأعوانه، وفي أثناء انطلاقتهم خرج عجلان من المصمك، ووقعت العين على العين، وكان عبدالعزيز يحمل بندقية ذات رصاصة واحدة، وزأرت المنيَّة، ودنت الساعة، وخفق القلب، وكبَّر البطل: الله أكبر، الله أكبر. وذُهل عجلان للمفاجأة، وتراكض رجاله مذعورين هاربين نحو القلعة.

وتوجه عبدالعزيز نحو عجلان، وكان عجلان شاهرًا سيفه، فأطلق عبدالعزيز الرصاصة الوحيدة من بندقيته، فأصابت عجلان في غير مقتل، وسقط السيف من عجلان، وانفتل هاربًا يريد باب القصر، ولحق به عبدالعزيز، وأدركه وهو يقفز داخل القصر، وأمسك برجليه يجرهما إلى الخارج، وتعلَّق عجلان بيديه في الداخل، وكان عِراك وقتال، وموت ونار، وهروب وفرار.

وقذف فهد بن جلوي عجلان بحربته، فأخطأته، واستقرت في الباب، وتمكن عجلان من الإفلات من يدي عبدالعزيز، ودخل القصر. وكان عبدالله بن جلوي يجالد،

ويقاتل، فأسرع نحو عجلان، وقد رآه يفلت، وأطلق رصاصة من بندقيته، فأردته قتيلًا.

واندفع المغامرون إلى الداخل يتقدمهم عبدالعزيز يقاتلون رجال الحامية، ويصارعون أعوان المحتلين، وكان عدد رجال الحامية ثمانين مقاتلًا، وشلَّت المفاجأة حركة الكثيرين منهم، وجمَّدت المباغتة الدم في عروق أغلبهم.

وكان عبدالعزيز يُنادي في رجاله، ويحثُّ أعوانه، ويتقدمهم نحو المنيَّة، ويسبقهم إلى البليَّة، ويطلب المجد بالسيف، ويَنشُدُ العزَّ بالرمح، ويبتغي المُلك بالبطولة. وتحقق له ما أراد، وتمَّ له ما أمل، فما هي إلا لحظات، وكانت السيطرة، وتمَّ استسلام البقية من رجال الحامية بعد أن قُتل منهم نيف وثلاثون رجلًا ممن قاوموا، واستشهد من رجال عبدالعزيز اثنان، وجُرِح أربعة.

ونادى المُنادي: الله أكبر، الله أكبر، المُلك لله، ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن، وكان البطل عظيمًا في تعامله، كريمًا في أخلاقه، فأصدر عفوه عن البقية من رجال الحامية الذين استسلموا.

وانتشر الخبر في صبيحة ذلك اليوم المجيد، وتباشر الأهالي، وتسابق الناس يستطلعون الخبر، ويتأكدون بأنفسهم من الحقيقة، ويُهنئ بعضهم بعضًا؛ فالرياض ولاؤها لآل سعود، إنهم يترقبون هذا اليوم، وينتظرون هذا الحدث.

ورقصت العاصمة، وعيَّدت؛ فقد كان العيد منذ أربعة أيام، ولكنه عيد وجوم وحسرة، وكأن أهلها يرددون قول المتنبي:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ جِئْتَ يا عِيدُ

بَما مَضى أم بأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ

أَمّا الأَحِبَّةُ فَالْبَيْداءُ دُونَهُمُ

فَلَيْتَ دُونَكَ بِيدًا دُونَها بِيدُ

وما حسبوا أن الأحبة على مَقربة، وأن الفرح قاب قوسين أو أدنى. أما الآن وقد سمعوا الخبر، ونادى المنادي أن الملك لله ثم لعبدالعزيز، فقد تجدد الأمل، وجاء الخير.

وقد حدَّثني بعض كبار السن ممن شهد آباؤهم ذلك اليوم المجيد أنهم تسابقوا نحو قصر المصمك يُهنئون، ويباركون، وأنهم باتوا يحمدون الله، ويُكبِّرونه، ويرددون الأهازيج أن فرَّجَ الكُربة، وكشَفَ الغُمَّة.

هـذه الرياض! كان أهلهـا في شـوق إليـك يـا عبدالعزيـز، فمرحبًـا بـك، وأهـلًا بمقدمـك.

أمـا الضَّيغـم المغامـر الـذي أذهـل العـالم بشـجاعته، وحيَّر الخصـوم بجرأتـه فقـد بـات النـاس يتسـاءلون، ويعجبـون مـن شـجاعته وبسـالته؛ حيث جـاء بنفسـه يقـود قلةً مـن المغامريـن، ويتقـدم ثُلـةً مـن المقاتليـن، وكـم مـن فئـةٍ قليلـةٍ غلبـت فئـةً كثيـرةً بـإذن الله.

وأحسـبُ البطـل، وقـد تحقَّـق لـه مـا تحقـق قـد شـكر الله، وحمـده، وأيقـن أن العـزة مـن الله والقـوة بـالله.

وبعـد أن تحقـق الانتصـار أمـر فـورًا ببنـاء سـور جديـد حـول المدينـة، وتمَّ بنـاء السـور خـلال خمسـة أسـابيع، حيث تسـابق رجـال المدينـة ونسـاؤها، شـبابها وأطفالها، شـيوخها ومسنُّوها يشـاركون في البنـاء. وكان الشـيخ صالـح بـن عبدالعزيـز آل الشـيخ يتقـدم البنـائين، ويعمل بنفسـه معهم.

وكتـب البطـل إلى والـده الإمـام عبدالرحمـن وإلى الشـيخ مبـارك يبشـرهما بمـا تحقـق، ويطلـب من والـده أن يُنجـده بأخيه سـعد بن عبدالرحمـن وبعض رجالهـم وأنصارهـم، فاسـتجاب والـده، ووصـل سـعد ومعـه بعض الرجال.

وشرع البطل يحصِّن نفسه، ويبني جيشه، ويُقوي مُلكه، ويفكر كيف ينطلق؟ وبماذا يبدأ؟ وأين يتوجه؟ إن أمامه أهوالًا وأخطارًا، وحوله أعداء وأطماع، وتناقل الركبان الخبر، وصار يترقب المنازلة، ويستعد للمصادمة، وتوكل على الله، وعلى الفور أخذ يجمع الأنصار، ويبني القوة، وكان ألمعيًّا فطنًا، فقرر ألا يستثير ابن رشيد، وألا يتحرش به في بادئ الأمر، وأن يدعَ الشمال، ويتوجه نحو الجنوب إلى الخرج والحوطة والحريق والأفلاج ووادي الدواسر؛ وهي مدنٌ تبعد عن الرياض ما بين مئة إلى سبع مئة كيلومتر.

واستجابت هذه المناطق، ورحبَّت بمقدمه؛ فآل سعود رجال حُكم وبطولة، وتاريخهم حافلٌ بالمجد، وعدلهم سابقٌ لأخبارهم، فمرحبًا بمقدمهم، ومرحبًا بانتصارهم، ومرحبًا بعودتهم.

ووصلت أخبار الملك عبدالعزيز إلى ابن رشيد، وهو مشغولٌ في محاولة احتلال الكويت، ومخدوعٌ بآماله وأحلامه بأن يكون الرجل المسيطر على المنطقة، ولهذا أبدى، في بادئ الأمر، عدم الاكتراث بما حصل.

وحين تزايدت الأخبار، وتواترت المعلومات عن توسع البطل القادم، وتسابق المدن والقبائل إليه، واستجابتهم

لقيادته، وفرحتهم بانتظاره، وتعاظم شأنه، عاد ابن رشيد إلى حائل، وأخذ يستعد لغزو الرياض، ومُنازلة صقرها الجديد.

ولما وصلت أخبار ابن رشيد إلى الملك عبدالعزيز أخذ يستعد، ويأخذ الحيطة والحذر، وأرسل إلى والده الإمام عبدالرحمن في الكويت يخبره أن الحرب قادمة، وأن المجابهة مع ابن رشيد وشيكة.

وجاء الأب من الكويت يستحث الخُطى، ويسابق الريح، ويغزو وهو في الطريق بعض القبائل الموالية لابن رشيد. وخرج عبدالعزيز ورجاله مسافة ثلاثة أيام يستقبلون الإمام القادم، والعائد الظافر الذي غاب عن الرياض أكثر من عشر سنوات، وحين وصل الإمام عبدالرحمن إلى الرياض، واستقر به المقام كتب الابن البار والمغامر الجريء، الملك عبدالعزيز رسالةً إلى أبيه يقول فيها: والدي الكريم، الإمارة لكم، وأنا جندي في خدمتكم.

إنها الكرامة، والوفاء، والتقدير، والتواضع، والشهامة، والنبل.

ورفض الأب الوقور، والوالد الكريم، وقال: ولدي عبدالعزيز، إن كان قصدك من استدعائي إلى الرياض أن

أتولى الإمارة فهذا لن يكون، ولا أقبَله مُطلقًا، ولا أُقيم في المدينة إذا ألححت به.

وتدخل العلماء في الأمر، وقالوا للملك عبدالعزيز: على الابن أن يطيع أباه. ثم التفتوا إلى الإمام عبدالرحمن قائلين: أنت والد عبدالعزيز، رئيسٌ عليه، ومن ثَمَّ على أهل نجد.

فردَّ الإمام عبدالرحمن بحزم: ولكن الإمارة له.

فقال الابن البار: إني أقبلها بشرط أن يكون والدي مُشرفًا على أعمالي دائمًا، فيرشدني إلى ما فيه خير البلاد، ويردعني عما يراه مُضرًّا بمصالحها.

وفي اجتماع عام حاشد بمدينة الرياض حضره علماؤها وكُبراؤها بعد صلاة الجمعة أعلن الإمام عبدالرحمن نزوله عمّا له من حقوق في الإمارة لكبير أبنائه الملك عبدالعزيز.

وأهدى إليه سيف سعود الكبير الذي يتوارثه الحكام السعوديون، ذا النصل الدمشقي والقراب الموشَّى بالفضة، والقبضة المحلاة بالذهب.

وتمَّت البيعة سنة ١٣٢٠هـ، الموافقة عام ١٩٠٢م.

وهكذا تحققت الأحلام، وانتهت الغربة، واجتمع الشمل، وأصبح الملك عبدالعزيز حديث الركبان وأمل الأمَّة، وصدقت النبوءات، وتحققت الآمال، واهتزت الرياض طربًا، واختال أهلها فخرًا، وأخذ الهِزبر المؤسِّس يُقوي مُلكه، ويبني مجده، ويستعد لخصومه.

وكان للبطل من السجايا ما جمع القلوب حوله، وكان للفارس القادم من الدهاء ما مكَّنه من القيادة والزعامة، فضلًا على ما كان قد عُرف به من خشية الله، والعدل الذي هو أساس الحكم.

يقول الريحاني: «ابن سعود رجلٌ كبير، هو نابغة بلاده، هو السياسي المُحنَّك، والقائد الباسل، والحاكم العادل، هو ابن البادية التي ينبغ فيها من حينٍ إلى حين كبار الرجال، فيظهرون فجأةً، ويسودون الناس بالعقل قبل أن يسودوهم بالسيف».

☚ وفي الفصل القادم عرضٌ للتحدي والمنازلة.

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

مـن إصـداراتنـا

تواصل معنا
CONTACT US

الفصل الثالث

التحدي والمنازلة

قال الملك البطل: انطلقتُ أنا وعشرون من الخيّالة بعد أن أخذَ التُّرك خيامنا.

قال الريحاني: إلى أين؟

فأجاب البطل ضاحكًا: انهزمنا، هربنا.

أهوالٌ وأخطارٌ، واعترافٌ بشجاعة الشجعان، وإقرارٌ بشدة الأعداء، وتلكمُ الحرب. قال امرؤ القيس:

الْحَرْبُ أَوَّلُ ما تَكُونُ فتيَّةً
تَسْعَى بِزِينَتِها لِكُلِّ جَهُولِ
حَتَّى إِذا حَمِيَتْ وَشَبَّ ضِرامُها
عادَتْ عَجُوزًا غَيرَ ذاتِ خَلِيلِ
شَمْطاءَ جَزَّتْ شَعْرَها وَتَنَكَّرَتْ
مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

إنها الحربُ؛ كرٌّ وفرٌّ، يومٌ لك ويومٌ عليك. هذه حال الملك المؤسس، ذاق حلاوة النصر، واكتوى بنار الحرب، وجُرح، وأُصيب، ومشى حافيًا، وتقدم الجنود، ورمى بنفسه في المهالك، وأورد ذاته الأخطار.

فما إن عادت الراية السعودية، وقضى الملك البطل على نفوذ ابن رشيد في العاصمة الرياض، حتى تسابقت المدن والقبائل تعلن الولاء والطاعة للملك القادم، وتأتمر بأمره، وتنضم مع جيوشه المحاربة، وسار بنفسه يقود الكتائب، وتوالت التحديات، وتعددت المنازلات.

وكان أمام الملك مهماتٌ جسام، وأهدافٌ وغايات، وخصومٌ شداد، وأطماعٌ تحدق به من كل صوب، وبُغاةٌ يقطعون الطريق، وجهلٌ وخوفٌ، وتشرذمٌ وتشتتٌ، وإماراتٌ وزعاماتٌ، وكانت همته عظيمة، وإرادته جسيمة، يَنشد إعادة الملك، ويطلب توحيد الوطن، ويرجو جمع الأمة، ويؤمُّ الجيوش الزاحفة، ويتقدم الرجال الهاجمة، وكأن المتنبي يقصده بقوله:

وَسَعَى فَقَصَّرَ عَنْ مَداه في العُلا

أَهْلُ الزَّمانِ وَأَهْلُ كُلِّ زَمانِ

تَخِذُوا المجالِسَ في البُيُوتِ وَعِنْدَه
أَنَّ السُّروجَ مَجالِسُ الْفِتْيانِ

وكان الخصم الأول -ابن رشيد- يستهين في بادئ الأمر بهذا الفارس القادم، وهذا النجم الطالع، وكان همُّه ابن صباح، وهدفه احتلال الكويت، وجاءت الأخبار تَترى، والروايات تقول: إن ابن سعود قويُّ الشكيمة، صلب الإرادة، ماضي العزيمة، امتدَّ نفوذه، وعظم سلطانه، وعلا شأنه، وتسابق الناس حوله.

وذُهل ابن رشيد، وأصابه الذعر، واضطرب من هذا الخصم الجديد، وجاء يستحث الخطى، وجيوشه تتدافع، وقواتُه تتسابق، وتوجه قاصدًا الرياض، وهدفه القضاء على الملك عبدالعزيز، ولكن هيهات هيهات! فأمامهم هِزبرٌ جاثم، ودونَهم أسدٌ صارمٌ، وعقلٌ مُدبرٌ، وقلبٌ ثابتٌ، إنه كما قال أبوفراس الحمداني:

وَقُورٌ وَأَحْداثُ الزَّمانِ تَنُوشُني
وَلِلْمَوْتِ حَوْلي جِيئَةٌ وَذَهابُ

ووصل الجيش الزاحف من حائل إلى القصيم، وتغلغل في نجد، وخيَّم في بلدة رغبةَ التي تبعد عن الرياض إلى الشمال

مئةً ونيفًا من الكيلومترات، وأقام فيها شهرين، وبات يتحرى، ويتحسس عن الملك عبدالعزيز؛ كيف قواته؟ ومن أنصاره؟

ثم تشجَّع، وتقدم نحو الرياض، وعسكر في مكان يُسمى الحسي -شمال الرياض بستين كيلومترًا- وأقام فيه أسبوعين، وسلَّط الله على هذا الجيش المرض، وحلَّ بهم وباءٌ تُوفي بسببه أعدادٌ منهم.

وكانت خطة ابن رشيد أن يُطوِّق الرياض من جهاتٍ متعددة؛ فأرسل أحد رجاله الموثوق بهم إلى القبائل المجاورة للأحساء يستنهض هممها، ويَنشدُ وُدَّها، ويطلب عونها على الملك عبدالعزيز، ولكن أنَّى له ذلك؟! فقد سبقه رجال الملك عبدالعزيز، وزارهم أخوه الأمير محمد بن عبدالرحمن، وعبدالله بن جلوي، وتمكن الرجلان من كسب وُدِّ تلك القبائل، وكيف لا وآل سعود أهلُ مُلك وتاريخ، وبيت عزٍّ وفضل، وأسرة عدل وكرم؟! وتبين لابن رشيد أن الملك عبدالعزيز جاهزٌ للمنازلة، قويُّ الإرادة، قد حصَّن نفسه، وبنى جيشه، واتضح له عدم القدرة على الهجوم على الرياض.

وبعد حيرة وقلق قرر ابن رشيد الرحيل، وتوجَّه إلى حفر الباطن التي تبعد عن الرياض إلى الشمال بمَيلٍ إلى الشرق

بأكثر من أربع مئة كيلومتر، وذلك ليحول دون وصول التموين، ويمنع الأرزاق القادمة إلى الملك عبدالعزيز من الكويت. وأخذ يفكر، ويتأمل، ويستميل القبائل، وصار همه العودة إلى الرياض مرةً أخرى، فقد صار الملك عبدالعزيز الرجل القوي الذي يُحسب حسابه، وتُخشى سطوته.

أما الملك عبدالعزيز فَسَرَّه رحيل ابن رشيد إلى حفر الباطن، وشرع على الفور يستولي على الجهات التي كانت تحت سيطرة ابن رشيد. وكان الملك عبدالعزيز يتتبع أخبار ابن رشيد، ويعرف تحركاته، ويعلم أهدافه، ويُوقن أنه لا بُدَّ من المنازلة مع ابن رشيد؛ فقرر استدراجه من الحفر إلى الرياض.

ولهذا أطلق شائعةً، وسيَّر الركبان برواية عن خلاف بينه وبين والده، تقول الشائعة: إنه اختلف مع أبيه الإمام عبدالرحمن الذي قرر أن يأخذ الأمان لأهل الرياض من ابن رشيد، وأن الملك عبدالعزيز خالفه، وخرج ساخطًا غاضبًا من الرياض. وسرَت الشائعة، وجاء ابن رشيد يستحث الخُطى نحو الرياض، ويهتبل الفرصة، ويبني على هذا الخلاف الأمانيَّ والآمالَ، ونزل ابن رشيد في بنبان التي تبعد عن الرياض إلى الشمال خمسةً وعشرين كيلومترًا، وأخذ يتحرى هذا الخلاف،

وكيف تطور؟ وعساه اشتد، وبعد أن سأل، وتحرَّى اتضح له أن الأمر ليس صحيحًا، وأن الخلاف ليس واقعًا، وأن الرياض مُحصَّنة، وأن الملك عبدالعزيز خرج منها، وتوجه إلى الخرج. وأسقط في يد ابن رشيد، وتحيَّر في الأمر، فهل يُهاجم الرياض المحصَّنة، الرياض الصامدة، الرياض الكارهة، أم يلاحق البطل الصاعد، ويطارد الخصم الجسور؟

وهل يا تُرى يعود أدراجه، وفي ذلك مهانة وذلة، وانكسار وحسرة؟ وبات في حيرة من أمره، واضطرب تفكيره، ومنعه الغرور والتعالي من الفرار والعودة، وحجزه عن الرياض الخوف والحذر، وبعد تأمل وتدبر قرر ابن رشيد السير خلف الملك عبدالعزيز، وانطلق إلى منطقة الخرج، ونجحت خطة الملك عبدالعزيز؛ فقد استدرجه من الحفر، وأبعده عن الرياض، وجعله في طوق بين أنصاره والموالين له.

ووصل ابن رشيد إلى الخرج، وأقام مركزه في بلدة نَعجانَ التي تبعد عن الرياض جنوبًا تسعين كيلومترًا، وراح يشنُّ منها الغارات على الدّلمِ حاضرة الخرج آنذاك، التي تبعد عن الرياض إلى الجنوب مئة كيلومتر، وظلَّ رجاله ينهبون، ويسلبون الناس أرزاقهم، ويحسبون أن عبدالعزيز وقواته بعيدون عنهم.

أما الملك عبدالعزيز فقد كان يرقب الأمر، ويرصد تحركات ابن رشيد، وقام بإرسال أخيه سعد إلى منطقة الحريق يستنجد أهلها، وراح هو إلى الحوطة يستثير همم رجالها، ويقودهم مع جيشه إلى المجابهة الحاسمة، ونجحت الخطة، واستجابت المدن وأهلها، وأسرعوا إلى المعركة، وأقبل الملك عبدالعزيز بقواته التي يبلغ عددها ألفي مقاتل، ودخل بلدة الدّلم، وذلك من بوابتها الجنوبية، وكمنوا للخصم القادم الذي كانت قواته تنطلق كل يوم للإغارة والسلب والنهب.

وعلى حين غرَّة فاجأ الملك عبدالعزيز قوات ابن رشيد في مكان يُسمَّى المحمدي، بين النخيل شمال غرب بلدة الدّلم، ودارت رَحى الحرب، واستمر القتال هناك إلى الليل، وأوقع الملك عبدالعزيز بقوات ابن رشيد الهزائم، وكأني به يردد قول أبي فراس الحمداني:

فَلَمّا اشْتَدَّتِ الْهَيْجاءُ كُنّا
أَشَدَّ مَخالِبًا وَأَحَدَّ نابا
وَأَمْنَعَ جانِبًا وَأَعَزَّ جارا
وَأَوْفى ذِمَّةً وَأَقَلَّ عابا[1]

(١) أقل عابًا: أي أقل عيبًا.

وأدرك ابن رشيد ضعفه وخَوَرَه، وعدم قدرته على المجابهة، فقرر الانسحاب والفرار. وقبل أن يحلَّ فجر اليوم التالي لهذه المعركة انسحب من معسكره، متجهًا شمالًا بعد أن ترك النيران موقدة في ذلك المعسكر؛ تمويهًا لتغطية الفرار والهروب.

وهكذا انتصر الحقُّ؛ فقد كان الجيش التابع لابن رشيد مكونًا من أربعة آلاف ذلول وأربع مئة فارس، في حين أن الجيش السعودي لم يتجاوز ألفي مقاتل وأربعين خيّالًا، وانتهى اللقاء الأول بهزيمة ابن رشيد ورحيله، ثم استقراره في حفر الباطن. أما الملك المنتصر عبدالعزيز فقد هلَّلَ، وكبَّر، وشكر الله، وعاد إلى الرياض، وصار الناس في فرح وتهليل بهذا الانتصار.

وهمَّ ابن رشيد بمحاصرة الكويت، فأرسل الشيخ مبارك الصباح إلى الملك عبدالعزيز يُعلمه، ويستنجده، وهكذا فالدنيا دُول، والدهر قلَّب، فقد صار مُنجدًا من كان بالأمس مستنجدًا! وبات عونًا من كان بالأمس مُعانًا، ولبَّى الملك عبدالعزيز النداء، وسار فزعًا إلى الكويت بجيش لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرج منها بأربعين ذلولًا منذ سنتين، فرحبَّت الكويت بالفارس القادم، وهلّلت بمقدمه، وانضم منها إلى جيشه من كان قد جنَّده مبارك بقيادة جابر الصباح.

وتوجهت قوات المُستنجِد والمُنجد للهجوم على خصمهما، ولكن ابن رشيد تراجع، وأشاع أنه عاد إلى حائل، وهاجمت قوات الملك عبدالعزيز وابن صباح إحدى القبائل التي كانت تُناصر ابن رشيد، وأسرع ابن رشيد إلى الرياض يهتبل فرصة غياب الملك عبدالعزيز، وهو يظن أنه سيتمكن من الاستيلاء عليها، ووصل إلى الرياض، ووجدها أمنعَ من عُقاب الجو، وأقسَى من الحديد، وأمرَّ من الحنظل؛ فقد نهض الإمام عبدالرحمن بأهل الرياض للدفاع والذود عن حماهم، وخرجوا من الرياض، ونازلوا ابن رشيد خارج السور، وردُّوه خائبًا، فصبَّ جام غضبه على النخيل، فأتلف بعضها، وعاد أدراجه مهزومًا مطرودًا.

وأرسل الإمام عبدالرحمن إلى الملك عبدالعزيز في الكويت، يُبشره بالنصر، ويُخبره بما تمَّ، فشكر الملك عبدالعزيز الله على هذا النصر، وأخذ بقية العائلة السعودية من الكويت، وعاد بها إلى موطن عزِّها، وموئل مجدها، إلى الرياض.

ثم انطلق الملك عبدالعزيز يُوحِّدُ الأقاليم الشمالية، بعد أن ضمَّ الجناح الجنوبي، وأخذ يبسط نفوذه على تلك المناطق التي كانت تحت نفوذ آبائه وأجداده، ويبني مجد أسرته في الجناح الشمالي، وغزا الكثير من القرى والمدن الواقعة شمال

الرياض، وسيطر على أقاليم المِحمل والشَّعيب والوَشم وسُدير، وانفتح الطريق أمامه إلى القصيم، ذلك الإقليم المشهور بالزراعة، والفاصل بين حائل عاصمة ابن رشيد، والرياض.

وضاقَ الخناق على ابن رشيد؛ فقد قَرُبَ الملك البطل من حماه، وأخذ ابن رشيد يهاجم بعض المناطق الواقعة شمال الرياض، وبعض القبائل التي دانت للملك عبدالعزيز بالولاء والطاعة، وأخيرًا قام ابن رشيد يجمع قواته، ويُحصِّن القصيم؛ فهي الميدان القادم للمجابهة الخطيرة، وصار يُخطط للمحافظة عليها، وتقوية حاميتها، والدفاع عنها.

أما الملك عبدالعزيز فبعد أن توسَّع مُلكه، وامتد نفوذه، واشتدَّ ساعده صار يرقب القصيم، ويخطط للسيطرة عليها وضمِّها إلى سلطانه، وبعد أن وزن الأمور، ورأى بثاقب بصره أنه قادر على انتزاع القصيم من ابن رشيد سار بجيش قوامه سبعة آلاف من المشاة وأربع مئة من الإبل، وتوجه إلى الغاط، ثم إلى الزلفي، وهي مدن تقع شمال الرياض وبالقرب من القصيم.

وأرسل إلى حاكم الكويت الشيخ مبارك بن صباح يسأله أن يرسل إليه من كان عنده من أهل القصيم، وكتب إلى زعماء آل مُهَنّا أمراء بريدة، وآل سليم أمراء عنيزة في العهد السعودي

يدعوهم إلى التوجه إليه بأنصارهم ليتساعدوا ضد الخصم المشترك ابن رشيد.

واستجاب الجميع لندائه، وأقبلوا مسرعين بأنصارهم، وانضموا إلى الجيش السعودي الزاحف، واجتمع الرجال في الزلفي، وتكامل وصولهم في أول رمضان سنة ١٣٢١هـ، وكانت سنةً مُجدبةً قليلة الأمطار، شحيحة الأرزاق، وضاق العيش بسكان الزلفي وبالجيش السعودي الزاحف، وصاروا يقطعون النخيل، ويأكلون لبَّها، ولم يكن -والحالة كذلك-من المناسب السير إلى القصيم.

ولهذا قرر الملك عبدالعزيز العودة إلى الرياض، أما زعماء القصيم الذين استدعاهم الملك من الكويت فذهبوا إلى شقراء التي تبعد عن الرياض إلى الشمال الغربي بمئة وستين كيلومترًا.

أما ابن رشيد فقد رحل من القصيم إلى العراق يستنفر القبائل، ويستنجد الأتراك، وأرسل أربع مئة من رجاله بقيادة ماجد بن حمود بن رشيد إلى مدينة عنيزة، وأرسل ثلاث مئة آخرين بقيادة حسين بن جراد إلى فيضة السرِّ.

وحين علم الملك عبدالعزيز برحيل ابن رشيد هبَّ مسرعًا من الرياض، وواصل السير إلى القصيم، ولما تجاوز منطقة الوشم علم بوصول حسين بن جراد ومن معه إلى فيضة السر، وخطط الملك عبدالعزيز لمفاجأة هذه القوات، ومن ثم طوَّقها في منتصف ليلة ٢٨ من ذي القعدة عام ١٣٢١هـ، الموافق ١٩٠٤/٢/١٤م، وقضى عليها، ثم عاد إلى الرياض بعد صراع ونزاع وقتال وانتصار، وأقام في الرياض حتى آخر شهر ذي الحجة عام ١٣٢١هـ حيث سار إلى الغرض الأكبر، إلى القصيم، وله همةٌ لا تعرف الكلل، إنه كما قال المتنبي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتي الْعَزائِمُ

وَتَأْتي عَلَى قَدْرِ الْكِرامِ المكارِمُ

وكان الملك عبدالعزيز -وهو الألمعي ذو الرأي والنظر- قد أشاع أن الرحيل نحو الكويت، وأن السفر إلى ابن صباح. وانطلقت الرواية، وانتشرت الحكاية، وأرسل إلى أتباعه من أهل القصيم المقيمين في شقراء أن يوافوه في ثادق؛ لأنه يرغب أن يصحبوه إلى الكويت، وبعد أن تكامل الأنصار انحرف بهم إلى القصيم، وغيَّر اتجاهه.

وفي ليلة الخامس من شهر المحرم من عام ١٣٢٢هـ، الموافق ١٩٠٤/٣/٢١م وصل الملك عبدالعزيز بقواته إلى قرب الأسوار الجنوبية من عنيزة، وأمر آل سليم وآل مُهَنّا أن ينطلقوا إلى المدينة، فامتثلوا للأمر، ودخلوها بسهولة، وكمنوا لقائد جيش ابن رشيد، وقتلوه، وحاصروا رجال الحامية في قصر الإمارة.

وأرسل الملك عبدالعزيز كتيبةً من رجاله بقيادة عبدالله بن جلوي عونًا ومددًا لأهل القصيم، وحين عرف رجال الحامية من قبل ابن رشيد ذلك سلَّموا أنفسهم حالًا إلى آل سليم. أما الملك عبدالعزيز فبعد أن صلى الفجر ركب على رأس سرية، وتوجَّه نحو المكان الذي كان فيه ماجد الحمود الرشيد، وما إن رأى أتباع ابن رشيد الخيل منطلقة نحوهم حتى لاذوا بالفرار، وتبعهم الملك عبدالعزيز، وقتل منهم نحو خمسين رجلًا، وهرب الباقون إلى بريدة وحائل، وبذلك عادت عنيزة إلى الحكم السعودي، وأمَّر الملك عبدالعزيز آل سليم من قِبَله عليها.

وبعد يومين من دخول الملك عبدالعزيز مدينة عنيزة قدم إليه وفدٌ من كبار أهل بريدة يخبرونه بوقوفهم معه، فسيَّر آل مُهنّا إليها، واستقبلهم أهل بريدة بالترحاب والتهليل،

وتوجَّه الملك عبدالعزيز بقواته إلى بريدة، وحاصر حامية ابن رشيد، ودام الحصار قُرابة شهرين ونصف الشهر، ويئس رجال الحامية، وأيقنوا بالهلاك؛ فابن رشيد بعيد عنهم، وولاء المدينة وأهلها للملك عبدالعزيز، والملك البطل مُحكم طوقه، ومسيطر على المدينة. ولهذا قرروا الاستسلام، وتمَّت السيطرة على إقليم القصيم، وانضوى تحت الحكم السعودي في ١٣٢٢/٣/١٥هـ، الموافق ١٩٠٤/٥/٢٠م.

وهكذا اشتدَّ الساعد، واتسعت الدائرة، وأقبل الناس زُرافاتٍ ووحدانًا يرحبون بالبطل، ويهنئونه بالنصر، وبعد أن سيطر الملك عبدالعزيز على القصيم، وتباشر الناس بمقدمه وانتصاره، وهلَّل أهل القصيم بسيطرته وسلطانه، جاء ابن رشيد يدق طبوله، ومعه عدد كبير من رجال البادية والحاضرة، وجمعٌ من القوات التركية، وأربعة عشر مدفعًا، وكثير من الذخيرة والمؤن والمال، وانضمت إليه قواته التي فرَّت من القصيم، وأخبرته بما فعل ابن سعود في بريدة.

أما الملك عبدالعزيز فقد تحرك من بريدة، عندما علم بتلك القوات القادمة، واستعان بالله، وسأله النصر والتوفيق، وأرسل إلى أتباعه من حاضرة وبادية يطلب منهم العون والمدد،

وتوافد الأعوان والأنصار، وبلغ الجيش السعودي عشرة آلاف مقاتل تقريبًا، وفي الليلة الأولى من شهر ربيع الثاني عام ١٣٢٢هـ، الموافق عام ١٩٠٤م، التحم الجيشان في سهل البُكيرية، غربي القصيم، وكان الملك عبدالعزيز قد قسم قواته إلى قسمين:

القسم الأول: يتكون من أهالي العارض (الرياض وما حولها) وتولى قيادتهم مباشرة، وخصصهم لمقاتلة ابن رشيد ومن معه من حاضرة وبادية.

القسم الثاني: ويتكون من أهالي القصيم، ومن لحق بالجيش من القبائل، وأسند قيادتهم لابن عمه عبدالله بن جلوي، وخصصهم لمقابلة القوات التركية.

ونشبت المعركة، وتلاقت الفرسان، والتحم أهل الرياض بابن رشيد ومن معه، وتقدم أهالي القصيم يُريدون القوات التركية، ولكن حال بينهم وبين الأتراك كثيبٌ من الرمال، وظلَّلهم الظلام، وسلكوا طريقًا مُقوَّسًا، جعلهم يتركون الأتراك عن يسارهم، ويجدون أنفسهم وراء خيام ابن رشيد، وكانت المفاجأة، فبينما الملك عبدالعزيز ومن معه يُهاجمون ابن رشيد ومن معه، إذ بهم يجدون القوات التركية تطلق نيرانها عليهم، وتُقابلهم مع جموع ابن رشيد، واشتدَّ الهول، وطال القتال،

واستمرت المعركة، في حَلَك الليل بضع ساعات، وكانت مذبحة هائلة، فقد قُتِل من جيش الملك عبدالعزيز تسع مئة مقاتل، فيهم ست مئة وخمسون من أهل الرياض، وقُتِل من جيش الأتراك نحو ألف، وفيهم أربعة من كبار الضباط، وخسر أهل حائل نحو ثلاث مئة، من بينهم اثنان من آل رشيد.

وفي تلك الواقعة أُصيب الملك عبدالعزيز بشظايا قنبلة في يده اليسرى، ووقع ابن رشيد عن فرسه، وسقطت الفرس عليه، فآلمته، ولم تُقعده، وكانت نتيجة المعركة غريبة، فقد انهزم فيها القسم الأول من أتباع الملك عبدالعزيز بقيادته، بينما انتصر القسم الآخر من أتباعه، وهم أهالي القصيم، ومن لحق بهم من رجال البادية؛ وذلك أنهم بعد أن ضلوا الطريق، وجدوا أنفسهم خلف جموع ابن رشيد، فضربوها، وغنموا أرزاق باديتها، وأقبلوا على مخيم الملك عبدالعزيز بعد أن تركه، وانسحب منه، ووجدوا فيه زُهاء ثلاث مئة من الجيش التركي، ففتكوا بهم.

وبعد أن طلع الفجر والملك عبدالعزيز في جنوب البُكيرية يبحث عن مكان، يُجمع فيه فُلول جيشه؛ إذ بأصوات البنادق تُطلق نيرانها في الهواء، ويتبين الخبر، وهو انتصار ذلك القسم

من جيشه، وبعد هذه المعركة الشرسة، وما حدث فيها من هول وقتل، أحب الملك عبدالعزيز أن يمتحن أهالي مدينتي بريدة وعنيزة، ويتأكد من حقيقة رغبتهم في محاربة ابن رشيد، فأرسل إليهم قائلًا: اثبُتُوا في مكانكم، وإني مستفزعٌ أهل نجد، وراجعٌ إليكم، فكتبوا إليه يؤكدون ولاءهم، ويرددون حماستهم، وأنهم معه في السرّاء والضرّاء، فهذه مشاعر الآباء مع حكامهم، وهذه روح الأهل مع سلطانهم.

يقول خير الدين الزركلي: «سمعت متحدثًا من أهل نجد، يقول: لما بلغ أهل نجد خبر المعركة تحاموا؛ أي: أظهر كلٌّ منهم حميَّتَه، وتسارعوا لنصرة الملك عبدالعزيز، واجتمع عنده في أقل من أسبوع، ما يناهز عشرة آلاف مقاتل».

إن هذا الموقف من الأهالي يؤكد الولاء والحب، ويُجسد السمع والطاعة، ويصور صدق المشاعر ونُبل العواطف، ففي مدة وجيزة، تتوافد الجموع، وفي غضون أيام معدودة تتسابق الأفواج للنجدة والمساعدة.

وحين تكاملت قوات الملك زحف بها إلى البُكيرية، وكان ابن رشيد قد ترك فيها مؤن الجيش وذخائره، ورحل إلى بلدة الخَبراء، يريد الاستيلاء عليها، ولكن ما إن علم بالزحف

السعودي حتى أرسل ألفًا وخمس مئة خيّال بقيادة سلطان بن حمود الرشيد، فتصادموا بخيّالة ابن سعود البالغين ست مئة وخمسين خيّالًا، وانتصر الملك عبدالعزيز، ودخل البكيرية، وفتك بحامية ابن رشيد، وطاردت خَيل الملك عبدالعزيز قوات ابن رشيد التي لاذت بالفرار، وتوجه ابن رشيد إلى الشنانة، إحدى البلدان الصغيرة بمنطقة القصيم، واتخذها معسكرًا له. أما الملك عبدالعزيز، فخيَّم في الرسِّ، واتخذها مركزًا له، وبقي الطرفان في موقعيهما شهرين، يحدث بينهما كل يوم تقريبًا كرٌّ وفرٌّ، وتبادلٌ لإطلاق النار، ومرَّ الوقت، وطال الزمن، وسَئم الجنود البقاء، وبخاصة فئات البادية التي تطلب حسم المواقف بسرعة.

وحين رأى الملك عبدالعزيز حال الجُند وقوة الصراع وطول الانتظار أرسل رسولًا -اسمه فهد الرشودي- إلى ابن رشيد يدعوه للصلح، ويعرض عليه الهدنة، وسخر ابن رشيد من العرض، وتطاول في القول، وقال مُتهكمًا متهددًا: من يطلب حكم نجد لا يتضجر، وهل يُصالح من بيده قوة الدولة؟ -يقصد تركيا- لا والله، لا صلح قبل أن أضرب بريدة وعنيزة والرياض ضربةً لا تنساها مدى الدهر، وأنتم يا أهل القصيم، لا يغرنَّكم ابن سعود،

لا يغرنَّكم شابٌّ طائشٌ يبغي الدراهم يأخذها لأمه الفقيرة، ورجع فهد الرشودي، وبلَّغ الملك عبدالعزيز مقولة ابن رشيد.

وكانت سخرية ابن رشيد وتهديده سببًا في زيادة حماسة الرجال مع الملك عبدالعزيز، بل كان تعاليه وتطاوله سببًا في نفرة أنصاره الذين قالوا له: هلكت مواشينا، وهلك أولادنا جوعًا، فإما أن نرحل نحن، ونتركك وراءنا، فأجابهم ابن رشيد: وكيف نرحل ولا ركائب عندنا لعساكر الدولة؟! فقال رجال القبائل: كل قبيلة منا تُقدم الركائب لقسم من العسكر، وقبِل ابن رشيد الرحيل، وأمر أن تُوزَّع أمتعة العسكر أحمالًا على جيشه، وبدأ ابن رشيد وحاضرة جيشه والقوات النظامية بالتحرك والرحيل،، وشُدَّت المطايا، ولُملمت الأمتعة، وركب الجنود ظهور الإبل، وامتطى الرجال الخيل، وساروا مُديرين ظهورهم نحو الملك عبدالعزيز.

وكان للملك عبدالعزيز عيونٌ ورجالٌ يرصدون تحركات ابن رشيد ومن معه. قلوبٌ زادت حماستها، وطفح هياجها، يريدون المنازلة لهذا الخصم العنيد الذي رفض الصلح، وسخر من الهدنة، ولهذا ما إن بدؤوا في الرحيل حتى فاجأت القوات السعودية جيش ابن رشيد المرتحل، وتلاقى الفرسان، وتقاتل

الطرفان، وتنازعوا من صلاة الفجر حتى غروب الشمس، ثم عاد الملك عبدالعزيز إلى الرس، وخرج ابن رشيد من الشنانة مهزومًا مدحورًا، وتوجه إلى جهة تُعرَف بقصر ابن عُقَيِّل، تبعد عشرين ميلًا عن الرس، وحاصره، وراح يضرب القصر بالمدافع.

وعلم الملك عبدالعزيز بمحاصرة القصر، وصاح في رجاله، وقال لهم: انهزم ابن رشيد، ونريد أن نعمل مناورة خارج البلدة، واستبشر رجاله، وخرجوا للمناورة وهم قُرابة ألف من الرجال، وبعد الخروج كشف الملك عبدالعزيز قصده الحقيقي، وأمرهم بالزحف إلى قصر ابن عُقيل. إنه عقلُ محاربٍ، وقلبُ مقاتلٍ، ودهاءُ قائدٍ، يجمع ذكاء أُمة وفطانة قبيلة.

وحين علم رجال الملك عبدالعزيز بالخطة ترددوا؛ لأنهم لم يكونوا متأهبين للرحيل، ولم يكن لديهم شيءٌ من الماء والزاد، وهم في الساعة الأخيرة من النهار، والمسافة أمامهم لا تقل عن عشرين ميلًا، وأدرك الملك عبدالعزيز تردد الرجال، وعرف حيرة الأنصار، فخطبهم مُحرضًا، وكلَّمهم مستنهضًا، ثم قال: أنا واحد منك، أنا مثلكم، أنتم ماشون وأنا ماشٍ، أنتم حفاةٌ وأنا والله لا أنتعل. هذا نعلي، هذه ذلولي، ووضع النعل

في الخُرج[1]، وألقى حبل الذلول على غاربه. ثم مشى أمامهم حافيًا، وانطلق أمامهم مهرولًا وسار الرجال وراءه متحمسين وهم مشاةٌ على أقدامهم؛ إخفاءً لحركتهم. هذه هي القيادة، وهذه هي الزعامة.

ووصلوا إلى القصر قبل نصف الليل بساعة، وأراد الرجال الهجوم على ابن رشيد في ذلك الحين، فمنعهم الملك عبدالعزيز؛ لأنه يعلم بما حلَّ بهم من التعب والجوع، ودخلوا القصر، وكان صاحبه من المخلصين للملك عبدالعزيز، وأقفلوا الأبواب، وناموا بقية ليلتهم، واتضح لابن رشيد أنه لن يستطيع احتلال القصر، فشدَّ رحاله بمجموعته التي تُقدر بخمسة عشر ألفًا من عربٍ وأتراك. وتركه الملك عبدالعزيز، حتى أكمل تحميل معداته ومؤنه، ومن ثم مشى ابن رشيد، وتحرك بهذه الجموع، وجمع الملك عبدالعزيز ما في القصر من خيل، وخرج بها تتبعها المُشاة، وظل يتحين الفرصة للمفاجأة، ويهتبل الوقت للمباغتة.

وأناخ ابن رشيد في وادي الرّمة، ونصب مدافعه، وما لبث أن باغته الفرسان السعوديون بقيادة أسدهم الملك

(١) الخُرج: هو كيس يُوضع فوق ظهور الإبل لحمل بعض الأمتعة.

عبدالعزيز، وتقارع الفريقان حتى منتصف النهار، وتقهقر الفرسان السعوديون، وتراجع رجال الملك عبدالعزيز، وبينما الملك البطل ينظر بمنظاره، ويرقب المعركة، إذ دنا منه اثنان من رجاله: أحدهما محمد أبوشيبة رئيس بلدة حوطة بني تميم، والثاني ابن له.

فقال أبوشيبة: يا عبدالعزيز، ماذا تنتظر هنا؟ لماذا لا نمشي، ونهاجمهم؟

مشاعر الرجال المخلصين، والأنصار المُحبين، والأبطال المدافعين.

قال الملك: تريَّث يا أبا شيبة، ولا تتعجل؛ فالوقت لم يحن بعد.

قال أبوشيبة: سوف أنطلق أنا وابني؛ نحن نريد الجنة، نريد الدفاع وحماية الأمة من الظَّلَمة.

مناقشة ومصارحة، ومحاورة ومجادلة، وحب وولاء، وتضحية وفداء.

وانطلق الرجلان، واخترقا مرامي الرصاص، والمعركة دائرة، وأدركا بيوت حرب ابن رشيد، فقطعا أطنابها بسيفيهما.

إنها البطولة، وإنها الشجاعة، وإنها الإرادة.

وشاهد السعوديون الرجلين، ورأوا البيوت تسقط، فعلا صياحهم، واشتدت حماستهم، وتسابقوا للموت والمنازلة، وكان عبدالعزيز أسبقهم، وكانت معركة طاحنة، اشتد الضغط فيها على عساكر الترك، فتفرقوا مولّين، وأدبروا منهزمين، وجرى ابن رشيد خلفهم مهزومًا، وتبعهم بقية رجاله تاركين وراءهم ما حملوه من عدَّة وعتاد، وأموال وأرزاق، وإبل وماشية، وفرش وثياب. واستمر رجال الملك عبدالعزيز عشرة أيام يجمعون ما ترك ابن رشيد وعساكر الترك في ساحة الوغى وميدان المعركة.

ووجدوا بين تلك الأحمال صناديق من الذهب، فحملوها إلى عنيزة، مقر الملك عبدالعزيز في ذلك الوقت، ووزعها الملك عبدالعزيز على رجاله كسائر الغنائم، وكانت معركةً حاسمةً، وميدانًا أنهى الأمر، وحسم الموقف لمصلحة الملك عبدالعزيز، وتُعرَف هذه المعركة بموقعة الشنانة، كانت يوم ١٨ من رجب عام ١٣٢٢هـ، الموافق ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٤م، وهي المعركة التي حسمت الموقف لمصلحة الملك عبدالعزيز، وقضت على النفوذ التركي، وتضاءل بعدها شأن ابن رشيد؛ حيث رحل بعد هذه المعركة إلى قرية تُسمى الكهفة، من قرى حائل، وبات يُلملم شَعَثَه، ويكاتب الأتراك، ويرقب ما يصنع الملك عبدالعزيز.

أما الملك المنتصر فقد برهن لخصومه وأصدقائه أنه قائد بطل، وله شعبية وقبول ولديه رأيٌ ونظر، وأنه صلب الشكيمة، مَنيع الحمى، مرهوب الجانب، وأنه سياسي عبقري، ومحاربٌ ألمعي، ولهذا دخل في مفاوضات مع الأتراك، ورغب في صدِّهم عن بلاده ومسالمتهم وتحييدهم؛ فقد عرفوا دهاءه ونبوغه، وأدركوا فطنته وقوته، وتوصل معهم إلى بعض الحلول.

وساء الخصم تفاهم الملك عبدالعزيز مع الأتراك؛ فهو يَنشد عونهم، ويطلب دعمهم وصار يشن الغارات من الكهفة على القبائل؛ ليحصل على الغنائم، ويظهر بمظهر القوي، ثم سيَّر سرية إلى الرس، فاستولت على البلدة، ثم ظل يغير على أطراف بريدة، ويناوش حامية الملك عبدالعزيز.

أما الملك عبدالعزيز فبعد أن كسر شوكة ابن رشيد، وتفاوض مع الأتراك، عاد ينجد حاكم قطر، الشيخ قاسم بن ثاني، الذي طلب عونه على قمع ثورة داخلية نشبت في بلاده، ثم عاد الملك عبدالعزيز من قطر إلى الرياض، وقلبه مع القصيم وعينُه نحو ابن رشيد، وزحف إلى القصيم لصدِّ ابن رشيد عنها.

وفي السادس عشر من صفر عام ١٣٢٤هـ، الموافق ١٤ من إبريل (نيسان) عام ١٩٠٦م تمت المنازلة التي حسمت الموقف مع ابن رشيد، فقد نزل ابن رشيد في مكان يُسمى روضة مهنّا بالقرب من بريدة، وفيها التقى الفريقان بقوة متقاربة لا يزيد أحدهما على ألفي مقاتل، إلا أن خيالة ابن رشيد كانوا أكثر، وحين اشتدَّ القتال تقهقر أتباع ابن رشيد الذين أخذتهم المفاجأة، فاحتل أتباع الملك عبدالعزيز مكانهم، وبينما كان الأمير عبدالعزيز بن رشيد يصول، ويجول على حصانه محرضًا رجاله إذا به يُصْبِحُ فجأةً بين رجال الملك عبدالعزيز، فقد كان يحمل رايته رجلٌ يُسمَّى الفُريخ، وكان رجال الملك عبدالعزيز قد أبعدوه عن مكانه في المعركة، ورفعوا الراية السعودية.

وجاء ابن رشيد نحو الراية مسرعًا، وهو لا يميز من شدة العجاج وظُلمة الليل، وجعل يصيح: من هان يا الفريخ! من هان يا الفريخ، وأين الفريخ؟

وعرف رجال الملك الصوت، فصاحوا: ابن رشيد يا طلّابته، وقضوا عليه، وانتهت المعركة، وكان عمره آنذاك نحو خمسين سنة، وصاح منادي الهزيمة في الجيش الرشيدي، وفرَّ

أتباعه، وتعقبهم رجال الملك عبدالعزيز، وجاؤوا للملك بخاتم ابن رشيد وسيفه. وهكذا أسدل الستار على الخصم العنيد الذي قاوم الملك عبدالعزيز بشدة.

☚ وفي الفصل القادم سنتناول الخصوم، وقد تحالفوا عليه.

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

مـن إصـداراتنـا

تواصل معنا
CONTACT US

الفصل الرابع

تحالف الخُصوم

جلس أحد الفلاحين ذات يوم يستظل بالعَمَّة النخلة، وينظر إلى ثمارها اليانعة ويتأمل القول المأثور: «أكرموا عمَّتكم النخلة». إنها حقًّا عمّةٌ وسيِّدة؛ إن ثمرها زاد المسافرين، وتمرها غذاء المقاتلين، وإنها رمز الخير والعطاء، وشجرة نجد، حيث الكرم والإباء. وهزَّ الرجل النخلة، فتساقط الرُّطب الجَني، فأكل، وشرب، وشكر الله أن قرَّت عينه بالبطل الملك عبدالعزيز.

وقال الرجل: هذا الملك يُوحِّد الجزيرة، ويُلملم الوطن، ماذا أُقدم؟ وماذا أعمل؟

إنه طول وقته فوق سرج حصانه، وعلى ظهر راحلته، يتنقل، ويجالد، ويقود الفرسان ويسبق رجاله الأشاوس، وينطبق عليه قول المتنبي:

أَنْتَ طُولَ الْحَياةِ للرُّومِ غازٍ
فَمَتَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ الْقُفُولُ؟

إن عبدالعزيز ورجاله في حاجة للزاد والغذاء، إن هؤلاء العمّات المئة سوف أقطف طلعها النضيد، وأجني ثمرها الهضيم، وأقدمه عونًا ودعمًا، وأبذله أريحيةً ورضًا. وظلَّ الرجل مستغرقًا في أفكاره، لاهيًا بآماله، طربًا بانتصارات البطل، فرحًا برجعة الفارس، داعيًا للملك عبدالعزيز بالتوفيق وطول العمر.

وجاء ابنه، فقال: أبتاه، هيّا؛ إن لدينا ضيفًا قادمًا.

قال الأب: من هو؟ ومن أين؟

قال الابن: إنه فلان.

قال الأب: مرحبًا به، إنه من المقاتلين مع الملك البطل. هيّا نُحادثه، ونُكرمه، هيّا نسمع أخباره، ورحب الرجل بالضيف، وأطراه.

قال الضيف: جئت بأخبار تَسرّ، وعُدت بأنباء تُطرب.

قال الأب: كيف عبدالعزيز بعد انتصاره في روضة مُهنّا ومقتل عبدالعزيز بن رشيد ذلك الخصم القوي؟

قال الضيف: لقد حمد الله، وشكره، وازداد ثقةً بأن الوطن سيتوحد، وأن مُلك الآباء والأجداد سيعود.

قال الأب: ولكن هناك خصوم يترقبون، وحوله حُساد، وعن يمينه وشماله بُغاة، أعانه اللّه عليهم، ونصره، ووفقه.

قال الضيف: إنه تصالح، واتفقَ مع متعب بن عبدالعزيز بن رشيد على انحصار إمارة آل رشيد في حائل وجبل شمّر، وإن القوات التركية التي كانت تناصر ابن رشيد رحلت إلى غير رجعة، وإن هيبتَه عظُمتْ، وسلطتَه امتدت.

قال الأب: أوَتظنُّ أن الأعداء سيقبلون؟

إنَّ الأَفاعِي وَإِنْ لانَتْ مَلامِسُها

عِنْدَ التَّقَلُّبِ في أَنْيابِها الْعَطَبُ

قال الضيف: إن عبدالعزيز صقرٌ يقظ، وليثٌ فَطن، إنه يعرف الناس بعيونهم، ولقد صدق الشاعر محمود الوراق، حين قال:

إِنَّ العُيُونَ عَلَى الْقُلُوبِ شَواهِدٌ

فَبَغِيضُها لَكَ بَيِّنٌ وَحَبِيبُها

وَإِذا تَلاحَظَتِ العُيُونُ تَفاوَضَتْ

وَتَحَدَّثَتْ عَمّا تُجِنُّ قُلُوبُها

يَنْطِقْنَ وَالأَفْواهُ صامِتَةٌ فَما
يَخْفَى عَلَيْكَ بَرِيئُها وَمُرِيبُها

وإنه يُقال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق، ومن إذا رضي لم يُخرجه رضاه إلى الظلم والباطل، ومن إذا قَدَر لم يتناول ما ليس له». وذلك عبدالعزيز عرفناه بهذه الصفات.

وطال سمر الرجال، وتداخل حوارهم، وحمدوا الله على ما تحقق، وشكروه على ما هم فيه من أمن وعدل، فقد صار الملك عبدالعزيز مرهوب الجانب، وأصبح شرع الله يُقام على الصغير والكبير، وباتت الأحكام الشرعية تُنفَّذ بسرعة على كل أحد. وهكذا صار الناس في مجالسهم يتحدثون عن البطل، وفي خلواتهم يُناجون أنفسهم عن العون والمؤازرة. إنه الحب والوفاء، والعدل والرضا.

وتناقل الرواة أخبار بطولته، وتهادى الركبان قصص عبقريته، وتخابرت البوادي بشجاعته، وقرأ الخصوم أخبار انتصاراته، وغاظ ذلك الحاقدين، وتآمر المتربصون، وانزعج الطامعون، وأقلق الصغار ممن يزعمون الإمارة، وينشدون الزعامة، وفحَّت الأفاعي، وتآلبت الذئاب، واتفق الخصوم، وعاش

البطل سنوات خمسًا ما بين ١٣٢٥هـ -١٣٣٠هـ/ ١٩٠٧م-١٩١٢م وهو متنقل ما بين هذه النار يطفئها، وتلك يُخمدها، وكانت سنوات حرجة قضاها، ولسان حاله يُردد قول المتنبي:

وَسِوى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ
فَعَلَى أَيِّ جانِبَيْكَ تَمِيلُ

فقد اتفق أحد زعماء البادية على العصيان والتمرد، وحالف أمير حائل سلطان بن حمود العُبيد من آل رشيد، الذي تولى إمارة حائل بعد مقتل متعب بن عبدالعزيز بن رشيد، ونقض الصلح الذي كان مع الملك عبدالعزيز. وكاتَبَ ابن رشيد أمير بريدة محمد أبا الخيل، وحرَّضه على التمرد والعصيان على الملك عبدالعزيز، واستجاب للمكاتبة، وخرج عن الطاعة، ووالى سلطان بن حمود بن رشيد.

وكانت الأحساء خاضعةً للسلطات التركية، وهي مدينة التمور والتجارة، وبها ميناء العقير. وكانت القوافل تغدو إليها، وتروح، من نجد ومن غيرها، فانضم الوالي التركي هناك للمناوئين، وشارك في الخصومة، وردَّ القوافل القادمة من نجد، ومنعها من نقل التمور والأرزاق؛ وذلك للتضييق على جيش الملك عبدالعزيز وتجويعه. إنه حصارٌ اقتصاديٌّ، وإنهاكٌ من هنا

وهناك. إنها أحداثٌ جسامٌ، ومواقفُ تهز الشجعان، ويضطرب لها الدُّهاة، ويَحارُ معها السُّراة.

ويعلم الملك بهذه الاتفاقات، ويعرف بهذه المؤامرات، ويبصر هذه العداوات، ويبدأ بالعلاج، ويُسرع إلى القصيم ليتأكد، ويتحقق من موقف أمير بريدة، ويُظهر أنه ذاهبٌ إلى هناك لزيارة زوجة له موجودة في بريدة، ويصل إلى مشارف القصيم، ويرسل إلى شُلهوب، أحد رجاله في تلك البلدة يخبره بقدومه، ويُعسكر في قرية الشِّقة الواقعة شمال غرب بريدة، وتصله شائعة بأن ابن رشيد هاجمٌ عليه، ويخرج هو نفسه يتحسس الأخبار، ويتأكد من الأنباء، ويتضح له أن الأمر شائعة، ولا يوجد ما يشغل البال، ويعود على المعسكر، ويستعد لدخول مدينة بريدة؛ ليطمئن على حقيقة الأمر، وما هو موقف أميرها؟ ويزور زوجته.

ويلبس البطل أفخر ما لديه من الثياب، ويرتدي عباءة الوبَر الزاهية، ويتوجه والطيبُ يفوح، والعطر يتطاير، ويسري تحت جُنح الليل يحف به ستة من الخدم، ولكنه عندما دنا من بريدة التقى رسولاً بعثه شلهوب ليقول له: إن محمد أبا الخيل أمير بريدة أقفل القصر، وهو متأهب للحرب، وتتأكد الأخبار،

وتصـدُق الروايـة، وتنكشـف الحقيقـة، ويتوقـف البطـل، ويلـوي عنـان حصانـه، فـلا يسـتطيع السـير إلى بريـدة، ثـم إن معسـكره يبعـد مسـافة ثـلاث سـاعات... فـإلى أين؟

وكانـت ليلـةً ممطرة، اشـتدَّ ظلامهـا، وهبَّت رياحها، والملك الظافـر لم يسـتعد لهـذا الموقـف، وهـو في كامل زينتـه وبهائه. إنها الأقـدار والمواقـف التـي لا تُنسـى، فهـذا اليـوم فيـه مـن الذكريـات التـي لم تفـارق خاطـر الملـك عبدالعزيز. ويعود القهقرى، ويشـتد المطـر، ويسـمع نبـاح كلـب في الطريـق، فيـؤم الصـوت، وإذا بَيتٌ مـن الشَّـعر، فيترجـل أمامـه ينشـد الملجأ من الريـح والمطر، وكان البيت خيمة صغيرة طولها ست أذرع، وعرضها نصف ذلك، وفي داخـل الخيمـة طائفة من البشـر، وكـمٌّ من الماعز.

وتكلم عبدالعزيز: يا أهل البيت، نحن ضيوفكم.

فأجابـوه، ولم يعرفـوه، فالظـلام دامـس، والليـل أليَـل، والمطـر يتسـاقط: مـن؟ أهـلًا ومرحبًـا إن البيـت والليـل والحـال يسـوِّدون الوجـه. ولم يقبلـوا غـير واحـد مـن الضيـوف، فدخـل عبدالعزيـز، وبقـي رفاقـه خـارج الخيمـة.

ويجـد في الخيمـة الصغيـرة الحقيـرة عشـرة أشـخاص كبـار وصغـار، وفيهـم عجـوز مريضـة وشـاب مجنـون، ويجلـس البطـل

قرب الباب، وقد بللت الأمطار ثيابه، ويضم يديه إلى جنبيه، وتثب صغار الأغنام على كتفيه، وتتبول الماعز أمامه، ويزداد سقوط الأمطار، وتُصَبصب الخيمة الماء، وكأنها تبكي لحاله، وتئن المريضة، ويصرخ المجنون، ويولول الكلب، ويصيح الصغار. إنه مشهدٌ بائس، ولكنها الأيام تأتي بالعجائب. والويل لك يا أمير بريدة، يا ناقض العهد، يا منكر المعروف والجميل.

ويخرج من هذا الخباء الحزين، ويترك هذه الأسرة الرثة، ويمتطي صهوة جواده، وينطلق إلى القرية التي فيها معسكره، وحين وصل وجد الأمطار قد أعلنت الحرب، فمنازل القرية تتساقط من شدة الرياح والأمطار، ويصل وقد أضناه السهر، وأنهكه التعب، وينزل من فوق حصانه، وقد طمر الوحل ملابسه الزاهية، ويتوجه لأمير البلدة، ويجد لديه غرفة سليمة، وفيها نار موقدة، فيحمد الله، ويشكره.

وبعد أن ارتاح، وجفف ملابسه، وأزال عنها الأوحال ركب حصانه، وتوجه إلى بريدة مرة أخرى، ولما وصل القصر وجده مقفلًا. وطرق الباب، فسُئل: من أنت؟ فأجاب أنا ابن سعود. ولم يسع من كانوا بالداخل إلا أن فتحوا الباب. وعندما أقبل أمير بريدة أبا الخيل رآه الملك عبدالعزيز يرتعد خوفًا، فقال له متجاهلًا: ما بالك ترتعد، قَبَّح الله وجهك؟

قال: لقد افترى الناس عليَّ، هم يكذبون -والله-فيما يقولون.

فقاطعه عبدالعزيز ناهرًا إياه: اسكت يا أحمق، ما بيَّن أمْرَك إلا أنت. ولم يقل أكثر من ذلك.

وعرف حقيقة الأمور، وتحقق من عداوة رئيس تلك القبيلة له، وأنه حالف ابن رشيد، فأسرع إلى محاربتهما وتأديبهما، وصالح أعداءه في بريدة، وعفا عن أميرها محمد أبا الخيل. إنها العظمة والدهاء، يُصالح هذا، ويُؤدب ذاك، يُداوي هذا الجرح، ويُضمد ذاك، إنه كبيرٌ يغفر الزّلات، ويزن الرجال. عقلٌ وحِلمٌ، وذكاءٌ وفطانةٌ، وبُعد نظر، وتهدئةُ جِراح.

وبعد أن صالح أهل بريدة، وعفا عن زعمائها توجه لأولئك المنشقين الذين شذُّوا عن الطاعة، وهاجمهم، وقام بكبح جماحهم، وأدَّبهم، وأعاد النافرين، وأقال المذنبين، ثم توجه الملك عبدالعزيز إلى ابن رشيد الذي نقض العهد، وصار يجمع الخصوم، وأغار على خيامه، وظلَّ في كرٍّ وفرٍّ مع خصمه، وتناوش الفريقان، وتكرر الصدام بين الطرفين. وفي إحدى المرات كبا حصان الملك عبدالعزيز، فوقع عنه، وانكسر عظمٌ في كتفه الأيسر، وأغمي عليه. رحمك الله أيها البطل؛ كم لاقيت الأهوال! وكم تعرضت للأخطار!

وثبت رجال الملك عبدالعزيز، وتصادموا مع المناوئين، حتى كتب الله لهم النصر، وطاردوا خيل المتآمرين التي فرَّت إلى الطَّرفية الواقعة شمال بريدة، وتبعهم الملك الظافر، وألحق بهم الهزائم، واستولى على البلدة، وعسكر فيها، ولم يحفظ أبا الخيل العهد، ولم يرعَ الوُدّ، فسارع إلى ابن رشيد، وانضم إليه، واتفق معه على مهاجمة الملك ليلًا في الطرفية، وعلى مفاجأته هناك، وانضم إليهم بعض العصاة من أبناء البادية، وكانوا يرجون بهذا التحالف وهذه المباغتة هزيمة الملك عبدالعزيز وإلحاق الخسائر به وبأتباعه.

وكأن الملك ممن يرى عن بُعد، وكأنه ممن يسمع من مسافة؛ فقد حذَّر رجاله من المباغتة، ولم ينم تلك الليلة من الألم والمعاناة، وكان الألمعيُّ يتوقع هجوم المتحالفين، فدعا قادة الجيش وهو المصاب في كتفه، وقال لهم: «إن ابن رشيد ومن يناصره من أهل بريدة هاجمون عليكم هذه الليلة، فتأهبوا، وكُونوا متيَّقظين، بُثُّوا الحرس والكشافة في الطرق، وحصِّنوا القصر» وصدق ظنه، ووقع ما جزم به.

ذكر صاحب (العقد الفريد) أنه «قِيل لعَمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما العقل؟

قال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان». وقال عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه».

وبعد منتصف ليلة الخامس من شعبان سنة ١٣٢٥هـ، الموافقة عام ١٩٠٧م أغار المتحالفون، ونشبت المعركة، ودامت إلى الفجر. وكان الملك عبدالعزيز يقود المعركة ويدُه قد لفَّها، وربطها في عنقه.

يقول الريحاني: «هجمت الباديةُ من جهة، وهجم أهل بريدة من الجهة الأخرى وهم يبغون احتلال القصر. أما ابن رشيد ورجاله فتقدموا هادئين ليباغتوا السعوديين، وعندما أطلقت البنادق نيرانها هبَّ العسكر كله للقتال الذي استمر حتى الفجر، فبدت إذ ذاك المياه الجارية بين النخيل، وقد احمرت بدم القتلى».

«صبحناكُم لا صبحَتكم العافية» هذه هي الكلمة التي كان يُرددها السعوديون عندما تتبعوا الرشيديين المنهزمين. وقُتل في هذه الوقعة التي تُدعى (وقعة الطرفية) ثلاثون من رجال الملك عبدالعزيز، وثلاث مئة من رجال ابن رشيد. وبعد هذه المعركة عاد إلى بريدة من سَلموا من أهلها، وفرَّ ابن رشيد وباديته إلى حائل، وقام الملك عبدالعزيز بتأديب بعض المناصرين لهؤلاء

المتحالفين، ثم عاد إلى الرياض، وكان يعلم أن أكثر أهل بريدة ليسوا على وفاق مع أميرهم محمد أبا الخيل، ولكنهم يخشونه، ولهذا عاد مرة أخرى إلى القصيم، وحاصر بريدة، واتصل به بعض أهلها، ووعدوه بأن يفتحوا له باب السور وقت صلاة العشاء.

وقبل الهجوم خطبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجيش، وقال لهم: «إنا هاجمون على هذا البلد احذروا أن تؤذوا من لا يعترضونكم، أو تُسيئوا إليهم بشيء، حاربوا من يحاربكم، وسالموا من سالمكم، أما البيوت فلا تدخلوها، وأما الحريم فمن اعتدى عليهن فيدي عليه».

وصيةٌ عظيمةٌ، وأمرٌ أعظمُ، تحذيرٌ وتنبيهٌ، وتخويفٌ وتهديدٌ، رفقٌ ورعايةٌ، وهدوءٌ وعنايةٌ: لا تدخلوا البيوت، إياكم والأعراض، الويل لمن مسَّ امرأة، الموت لمن قرب مُخدَّرة[1].

إنه الإيمان والخوف من الله، إنه الشعور بعِظم المسؤولية.

ومضى الوقت، وما كاد الناس يخرجون من صلاة العشاء حتى فتحت المدينة أبوابها، ودخل رجال البطل، وعلا الصياح في المدينة، وأسرع الناس إلى دورهم، وأغلقوا أبوابهم، وخافوا من المهاجمين، وباتت كل أسرة تتوجس خيفةً، وتخشى

(١) المُخدَّرة: الفتاة، وقد استقرت في الخِدر.

سطوة المقاتلين، ولكن القادم رجلٌ يخاف الله، وفارسٌ يغار لحرمات الله، وعبدالعزيز تدمع عينه من خشية الله، إنه الأمان والسلام، إنه الخير والوئام.

واشتبك جنود البطل برجال أبا الخيل، واستمر القتال طوال تلك الليلة، وقُتل عددٌ يسيرٌ من الفريقين: عشرة من رجال أبا الخيل، وخمسةٌ من جنود الملك عبدالعزيز، وطوق رجال البطل القصر، وحاصروا الأمير ومن معه، وعرف أبا الخيل أن لا قبَل له ولا حول له ولا قوة، فطلب الأمان والعفو. واستجاب الملك البطل، وعفا عن الجميع، وتمَّ الاستسلام، وكان ذلك عام ١٣٢٦هـ الموافق ١٩٠٨م.

إنه البطل، مُقيل العثرات، ولقد صدق فيه قول محمد بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «منْ حَلُمَ وقَى عرضه، ومن جادت كفّه حَسُن ثناؤه، ومن أصلح ماله استغنى، ومن احتمل المكروه كثُرت محاسنه، ومن صبر حُمد أمره، ومن كظَم غيظه فشا إحسانه، ومن عفا عن الذنوب كثُرت أياديه، ومن اتَّقى اللّهَ كفاه ما أهمَّه».

واستأذن محمدُ أبا الخيل الملك في الذهاب إلى العراق، فأذن له، ورحَّله إلى هناك، وعيَّن مكانه في الإمارة أحمد السديري، ومنذ ذلك التاريخ استقرت أوضاع بريدة وتوابعها

تحت راية الملك عبدالعزيز. أما ابن رشيد فبعد سنة وسبعة أشهر كانت المعركة الفاصلة بينه وبين الملك عبدالعزيز في مكان يُدعى (الأشعلي)، وهو كثبانٌ من الرمال بين القصيم وحائل.

حيث شرع الملك يتأهب للقاء، وقسَّم رجاله إلى فرق ومجموعات، ووزَّعهم، وتحصَّن في النفود بفرقة قوية، وأمرها بالتريث وعدم إطلاق النار إلا عندما يرونه قد بدأ، وهجم، وكان الملك عبدالعزيز ألمعيًّا، وداهية حرب يعرف نفوس رجال البادية المناصرين لابن رشيد وأهدافهم، ويعلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحرب خُدعةٌ وتخطيطٌ وإدارةٌ، ولعله امتثل وصية المهَلّب بن أبي صفرة لبنيه: «عليكم بالمكيدة في الحرب؛ فإنها أبلغ من النجدة».

ولهذا أخلى خيام المعسكر، ثم أمر بألا تُعقل الإبل التي غنمها، وهو في طريقه من بعض القبائل، وأراد بذلك أن يُغري بها بادية العدو، فإذا هجموا، وشاهدوا الإبل شاردةً فسوف يتبعونها، ويسوقونها غنيمة، والإبل إذا سمعت إطلاق البنادق، ولم تكن معقولةً فرت هاربة، وانتصف الليل، وهجم ابن رشيد على المخيم السعودي الخالي من الجند، فذهب الرصاص سُدًى، وفرَّت الإبل، وانطلق رجال البادية وراءها وهم يصيحون: الغنيمةَ الغنيمةَ. وهربت كذلك تحت جنح الظلام

بادية الملك عبدالعزيز، ولعلهم شاركوا في نهب الإبل، وأرسل الملك عبدالعزيز سريةً لمناوشة المهاجمين على المخيم السعودي، وأمرهم بالانسحاب بعد المناوشة وإظهار الهزيمة والفرار.

ونجحت الخطة، فقد اندفع ابن رشيد ورجاله وراء المنهزمين، ووقعوا في المصيدة، حيث هبَّ الملك عبدالعزيز ورجاله من النفود، وأغاروا عليهم عند انبثاق الفجر، في ٥ من ربيع الأول من عام ١٣٢٧هـ الموافق عام ١٩٠٨م، ودارت رحَى المعركة، وكُسر سلطان ابن رشيد كسرةً لم تقم له بعدها قائمة، وعاد إلى حائل يُجرجر أذيال الهزيمة، حيث قتله أخواه سعود وفيصل؛ لخلاف بينه وبينهما. أما الملك عبدالعزيز المقاتل الشجاع، والداهية المحنَّك، والخبير بالنفوس، والعارف بالغرائز، الذي جمع العبقرية، فقد غزا بعد ذلك بعض العصاة، وعاد إلى القصيم، فأمَّر فيه ابنَ عمه عبدالله بن جلوي، وانحدر بعد ذلك إلى الرياض.

ودارت الأيام، وعاش البطل أحداثًا متعددة، يؤسس ويبني، ويؤدب عصاةً نفروا، ويعفو عن جناة أساؤوا، ويُنجد الشيخ مبارك بن صباح الذي ما فتئ يطلب عونه ومدده، وهو

المحارب المتنقل من هنا إلى هناك، ولكنه الدهاء والعقل، والحياء والخلق، والمروءة والوفاء، والصبر والتحمل.

ويرسل أخاه سعدًا، الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره إلى قبيلة عتيبة يستنفر رجالها لبعض أموره، ويشاء الله أن يكون الحسين بن علي -حاكم الحجاز- في ذلك الوقت نازلًا بالقويعية التي تبعد عن الرياض مئتي كيلومتر غربًا، وذلك في رجب سنة ١٣٣٠هـ، الموافق عام ١٩١٢م، ويصل الأمير سعد إلى القويعية، ويعلم بوجود الحسين، ويهمُّ بالعودة. وكان معه أربعون رجلًا، ولكن بعد أن ركب حصانه، وقفل راجعًا مع رفاقه لحق بهم بعض الرجال، وقالوا للأمير: نحن خُدامكم، قفُوا، ولا تخافوا.

ويُصدقهم سعد، ويعود، ولكنه يقع في الأسر، ويأتي المخبر إلى الملك عبدالعزيز، ويقول له: أخوك أسير. وكأني بالملك وقد بلغه الخبر يزمجر، ويتأوه، ويتذكر أخاه، فما أعزَّ الأخ! وما أكرم الساعد! وكيف يقرُّ للملك قرار وأخوه أسير؟! وكيف يلذُّ له المقام وأخوه سجين؟! إن الرزايا تهون، والبلايا تتلاشى، ولكن الرزية بسجن سعد جارحة.

وظلَّ الملك كالأسد الذي استُثير، والرعد الذي تلاقى، والبرق الذي تداخل، وزحف بجيشه إلى ضرما غربي الرياض، وتوالت كتبه، وتعاقبت رسلُه إلى شيوخ البادية الذين كانوا في تلك المناطق، يا ويلكم إن تركتم الشريف يرحل بسعد، ويا سوأتكم إن مسَّ سعدًا أذى، إنها الحرب بيني وبينكم، إنه الموت لا محالة، إنها النار المحرقة. وزحف الجيش، وتسارعت النُّذر. ودبَّ الخوف في رجال البادية، وسادها الذعر، وولولت، وارتاعت، وصاحت نُذُرُها: جاءكم الأسد الصارم، وأقبل الموج المتلاطم، وزحفت النار المحرقة فالنجاةَ النجاةَ، والفرارَ الفرارَ.

وتأمل أولئك الشيوخ، وفكَّر رجالها، وأسرعوا إلى الشريف الحسين، وقالوا له: أين ترحل؟! وأين تسافر؟! ها هو عبدالعزيز أقبل، ها هو الموت جاء، لا طاقة لنا بحربه ولا قدرة لنا على عدائه، وصرخت نساؤهم، وتلفَّت صبيانهم، وذُعر رجالهم، وضغطوا على الحسين، وخوَّفوه، وأنذروه، وأقلقوه، وأحسَّ الحسين بالخطر، وأدرك أن عبدالعزيز لن يترك أخاه، ولن يدَعَ عَضُدَه. وكتب الحسين إلى الملك عبدالعزيز يقول: إذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام، وعُدنا بأخيك سعد إلى مكة، فيبقى عندنا إلى أن تطلب الصلح.

وزاد هلع الحسين؛ فهو يعرف سطوة الملك عبدالعزيز، وعظمة شخصيته، وتعاظم شأنه، وقوة جيشه، ويعرف أنه لن يترك أخاه، ولهذا أرسل مندوبًا من قِبله إلى الملك عبدالعزيز يقول له: «إن الشريف الحسين ليست له نية سيئة، ولكنه يبغي تبييض وجهه مع الدولة -أي تركيا- ويريد منك ورقةً تنفعه عندهم، ولا تضرك، يريد أن تعترف ولو اسميًّا بسيادة الدولة، وأن تعِدَ بدفع شيء من المال سنويًّا». وتأمل الملك عبدالعزيز الموقف، ووزن الأمور، وأمر كاتبه أن يكتب أن بلاد نجد تدفع للدولة ستة آلاف مجيديٍّ كل سنة. فلأجل سعد يهون كل شيء، ولأجل سعد نوافق على كل شيء، ثم إن القرار بيدنا، وكتب الورقة، وأرسلها، وأطلق الحسين سعدًا، وعاد يحمل الهدايا، ورجع الملك الظافر بأخيه، وانجلت الغياهب، وبات يستعد لجولة أخرى للساحل الشرقي.

فما قصة ذاك الإقليم؟ في الفصل القادم إيضاحٌ وحديثٌ.

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار Obeikan Investment Group

من إصـداراتنـا

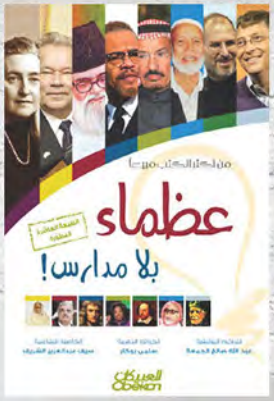

تواصل معنا

CONTACT US

الفصل الخامس

الساحل الشرقي

ونزل البطل من فوق ظهر حصانه، وسجد لله شكرًا أن نجحت خطته، وأفلح تدبيره، كَم أنت عظيمٌ أيها المؤسس! وكَم كنت داهيةً أيها الراحل! تقود، وتخطط، وتخشى الله، وتراقبه، وتنزل من صهوة حصانك، وتُعفِّر وجهك في التراب شكرًا لله. إنه الإيمان واليقين، إنها العظمة والفرحة.

حَدَث هذا في أثناء استرداد الأحساء. إنها واقعةٌ رواها الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «هاجمت الأحساء على غفلة، واستوليت عليها بعد معركة فاصلة بيني وبين الأتراك، وبعد انتهاء المعركة -وأنا على فرسي- جاءني الله برجلٍ قدّمه لي إبراهيم القصيبي، وقال: إنه محمد أفندي مدير مالية الأحساء. فسلَّم هذا عليَّ، وقال: يا طويل العمر، يوجد في القصر عشرةُ آلاف ريال.

فقلت: عسى ألا تكون قد نُهبت.

فقال: لا، أنا مررت بالقصر، ووجدت الأقفال سليمة.

فبعثت معه بعض رجالي، وقلت: حافظوا عليها إذا وجدتموها.

وبعد ذهابه ترجَّلت عن فرسي، وسجدت لله شكرًا».

وإن لعودة هذا الإقليم قصةً، ولرجعته بطولة، ولاحتوائه دهاء، فقد تلفَّت البطل إلى بقية أجزاء الوطن، إلى الأرض التي حكمها أهله وأجداده، وإلى المجد الذي كان، فقد اشتد الساعد، وعظُم الحكم، وتنامت السلطة، وخنع العصاة، وأطرق المناوئون، وترقبوا، وهمَّ بالساحل الشرقي، ونظر إلى إقليم المياه والأشجار، وتحرَّك للمنفذ البحري، فلا مُلك من دونه، ولا سلطان إلا به.

لقد كان هذا الإقليم جزءًا من وطن الأهل والأجداد؛ ولكنها الدنيا تدور، ولا تدوم، فقد استولى عليه الأتراك عام ١٢٨٨هـ، ١٨٧١م، إبان اختلاف أبناء الإمام فيصل بن تركي جدِّ الملك عبدالعزيز رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. وكان يتولى إدارة الأحساء والٍ تابع لحاكم البصرة من قِبل تركيا، وسنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م اضطرب هذا الإقليم الشرقي، واختفى الأمن فيه، وساد النهب،

ولم يستطع الوالي التركي السيطرة على البدو الذين ينهبون، ويقطعون الطرق.

وحرَّك الملك عبقريته، وأظهر دهاءه، وقرر السيطرة والاستيلاء، وأخفى أمره، فرمى خيوط البداية، ونثر الحَبَّ للطائر، وكتم نيته، وأظهر للأتراك التعاون، وأبدى لهم الطمأنينة، وخرج الملك في شهر ربيع الأول عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م من الرياض إلى الأحساء، ونزل على ماء الخَفس الواقع في الطريق إلى الأحساء حتى آخر الشهر، وأغار على بعض القبائل المذنبة، وأخذ مواشيهم، ولم يكن قصدُه تلك البادية، وإنما يريد شيئًا آخر، كما قال أبوحيّان البصري:

يا مَنْ أُحِبُّ وَلا أُسَمِّي بِاسْمِها

إِيّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يا جَارَةْ

وتقدم نحو الأحساء، فذُعر الوالي التركي، وكتب إليه يستطلع الخبر، وما القصد؟ فقال الملك الداهية: إنه قدم إلى المنطقة لمعاقبة بعض فئات من البادية، اعتدت على قوافل تجارية تابعة لأنصاره، وإنه أغار عليهم، وحاسبهم، ويريد أن يدخل أتباعه البلدة لشراء الأمتعة والزاد. والحقيقة هي الرغبة

في معرفة الوضع، وتجهيز الجند، وشراء ما يحتاج إليه الجيش، وعاد الملك إلى الرياض، وترك قواته في الخفس.

وفي تلك الفترة يصل إلى الرياض رجلٌ إنجليزي قادم من الشام بطريق الجوف، اسمه (ليتشمن). وكان هذا الرجل يُتقن العربية، ويتكلم لهجة البادية، ويلبس لباسهم، ويركب مركبَهم، ويجلس جلستَهم.

وسأله الملك عبدالعزيز، وقد رابَه الأمر: ما القصد من سياحتك؟

فأجابه قائلًا: إني جغرافي، وأريد أن تساعدني لاجتياز الربع الخالي من واحة يبرين إلى عُمان.

قال الملك عبدالعزيز: إن قدومك إلينا على هذا الوجه خطأ، فلا علم لنا به، وليس معك توصيةٌ من الحكومة البريطانية.

قال ليتشمن: إني رجلٌ إنجليزي طالب علم، وأنتم مشهورون بإكرامكم الإنجليز، وبخاصة العلماء منهم.

وأعمل الملك فكره، ورغب في الاستفادة من هذه الفرصة؛ فقد استراب من الرجل، وشكَّ في هدفه، وظنَّ أنه

يتجسس للأتراك، ولهذا قرر اهتبال الفرصة؛ فهو عازم على إخراج الأتراك من الأحساء، ومُقررٌ منازلة جنودهم هناك. إنها الهدية الثمينة، ولهذا قرر أن يستخدم هذا الرجل في طمأنة الخصم، وفي التمويه على العدو الذي تقررت منازلته، وحان حينه، ودنا موعد اللقاء به. ولذلك قال الملك للرجل: إنه لا يستطيع أن يجيب طلبك غير الترك في الأحساء، فأرى أن تذهب إلى الوالي هناك، وأنا أكتب إليه بخصوصك.

وكتب الملك كتابًا أعطاه الرجل، وقال فيه: «إن هذا الرجل مجهول لدينا، وهو واصلٌ إليكم، فلكم فيما يبغي الرأي الموفَّق إن شاء الله»، ورحل ليتشمن، وغاب عن الأنظار، وتوجه برسالة الملك عبدالعزيز إلى الأحساء. وبعد برهة من الزمن شدَّ الملك رحاله، ورجع إلى معسكره في الخفس.

وفي المعسكر الحربي تأمل الملك عبدالعزيز الموقف، فالأحساء لا بد من السيطرة عليها والأتراك لا بدَّ من إجلائهم؛ فالوالي التركي يعمل دائمًا على إغراء البدو بعداوة الملك والسلطات التي يتلقى منها الأوامر في بغداد بينها وبين الملك فجوةٌ وخلاف! فهم يدعمون ابن رشيد، وفي آخر لقاء كان لهم مع مندوب الملك عبدالعزيز أحمد بن ثنيان صار تطاولٌ وتعالٍ

في القول؛ فقد قال والي بغداد آنذاك جمال باشا لمندوب الملك عبدالعزيز: إن ابن سعود لا يعرف مقامه، وقد غرَّه أن صفح عنه المشير فيضي باشا -يقصد القائد التركي الذي جاء لمناصرة ابن رشيد- فإن كان لا يقبل بما تطلبه الحكومة فإن في إمكاني أن أخترق نجدًا من الشمال إلى الجنوب بطابورَين.

وقد كان جواب الملك الشجاع أن كتب إليه، وقال: «قُلتُم: إنكم تستطيعون بطابورَين أن تخترقوا بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب، ونحن نقول: سنقصر لكم الطريق قريبًا إن شاء الله...». وقد أرسل الملك عبدالعزيز كتابه هذا إلى وكيله في البصرة عبداللطيف المنديل، وأمره أن يُسلم هذه الرسالة إلى السلطات التركية هناك، ثم كتب إليه، وقال له: «إذا سألك الترك: هل أنت مندوب ابن سعود؟ فقل لهم: إني عثماني، وكان الملك يخشى على مندوبه أن يلحق به ضرر عندما تعلم السلطات هناك بهجومه على الأحساء.

ووصلت الرسائل إلى المندوب السعودي الذي قام بدوره بتسليم الأتراك الرسائل الخاصة بهم، ولم ينكر أنه نجديٌّ أو وكيلٌ للملك عبدالعزيز، ولم يأخذ بنصيحة الملك؛ فقد غلبته الحميَّة، وأخذته النخوة، وقال لهم: لقد جهلتم قدر هذا الرجل، وها هو الآن يعرفكم بنفسه.

وخشي الملك إحدى القبائل الموجودة هناك، وخاف من أطماعهم، ولهذا سيَّرهم إلى الشمال، ودفعهم لمحاربة قبيلة أخرى، حيث كان العداء بين القبيلتين قائمًا، واستطاع بذلك أن يبعدهم عن ساحة اللقاء، وأن يشغلهم بخصومهم، وهذه هي العبقرية، وهذا هو الدهاء.

وسار من معسكره في الخفس، ونزل في موقع يُقال له: السِّيفة، قرب الهفوف، وقد لقيَه في الطريق مندوب من الوالي التركي يحمل كتابًا يسأله فيه: من أي الجهات جاء الإنجليزي إلى الرياض؟

وقد قال الملك للنجاب ناقل الرسالة: غدًا -إن شاء الله- أنا بنفسي أُعلم الوالي، وأمسكَ بالنجاب.

وكان في الأحساء رجالٌ ثقاتٌ، ولاؤهم للملك عبدالعزيز، ورغبتهم في سلطته، ويتمنون مجيئه، وينشدون عونه، ويطلبون سيطرته، ولهذا ما إن اتصل بهم الملك حتى هبُّوا يزودونه بالمعلومات الوافية عن القوات التركية عددًا وعدةً وتحصينًا، وأعلموه بالصعوبات، وعُلُو أسوار الحامية.

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقد كُنا على مَرأى من الهفوف، ومن الرابية التي كنتُ جالسًا عليها استطعت أن أرى بوضوح أسوار

القلعة الحصينة التي كانت تُشرف على البلدة، كان فؤادي مُثقلًا بالحيرة، وكنتُ أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره. إنه التحدي، فالحامية التركية مُتحصنة، والسور أمامه، ولكنها العزيمة والشجاعة، والثقة بالله وفوق ذلك ففي داخل المدينة أصحابٌ وأنصار. ولهذا قرر البطل رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحرب والهجوم، وأرسل إلى أولئك الرجال الموالين له في الهفوف يقول: إننا هاجمون في هذه الليلة، وكُلُّ صعب يسهل بحول الله.

وبعد غروب الشمس بثلاث ساعات انطلق الملك البطل بأتباعه من معسكره، حتى وصل فجأة أمام أسوار مدينة الهفوف، وكان ذلك في اليوم الخامس من جمادى الأولى ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، وكان عدد الرجال الذين معه قرابة تسع مئة مقاتل أغلبهم من الحاضرة، وقبل الهجوم خطب في رجاله، وقال لهم: إننا هاجمون على الأتراك في القلعة، وإننا منتصرون بإذن الله، امشوا إلى غرضكم، ولا تضجُّوا، وإذا كلمكم أحد فلا تجيبوه، حتى وإن ضُربتم بالبنادق -ونحن في الطريق- فلا تَضربوا. أما وقد صِرتم في القلعة فحاربوا من حاربكم، ووالوا من والاكم. ثم نَبَّههم لأمر جلل؛ فهو القائد الرباني يخشى الله، ويخافه، ويَغار لحرماته، وقال لجنده: «البيوتَ البيوتَ، لا تدخلوها، والنساءَ النساءَ لا تدنوا منهن».

لك الله أيها الراحل! راقبتَ الله، فأعزك، ونصرتَ الله، فنصرك، وحفظت محارمه، فحفظك، وصُنت أعراض المسلمين، فصانك إله العباد، ونصرك رب الأنام، وملَّكَك مَلِك الملوك.

وهرول الملك الشجاع على قدميه، ومشى الجنود من ورائه على الأقدام، وأمَّهم نحو المجابهة، وسبقهم إلى المنازلة، وكان الجند يحملون معهم جذوع النخل وحبال التسلق، فالحامية مُحصنة، والسور عالٍ، ولا بُد من اجتيازه وتسلقه. ولما وصلوا إلى السور قسَّمَهم الملك إلى ثلاث فرق. فقال للفرقة الأولى: أنتم تسيرون إلى الباب الجنوبي، فتقبضون على الحرس، وتستولون على الباب، وما يليه. واتجه إلى الفرقة الثانية، وقال لهم: وأنتم تسيرون إلى السرايا، لعل المتصرف (الوالي) فيه، فتأسرونه. أما الفرقة الثالثة فقال لها: تفرقوا في أبراج السور. ثم توجه للجميع، وقال لهم: هذه هي أوامري، فاعملوا بها، ولا تتعدَّوها، وكأني به يردد قول المتنبي:

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّما

مَفاتِيحُه البِيضُ الخِفافُ الصَّوارِمُ(١)

(١) البيض: السيوف. الخِفاف: المرهفة الحادة. الصوارم: القواطع.

وسَمَّى الرجال بالله، وكبَّروا، وباشروا ربط الجذوع بالحبال، فصنعوا منها سُلّمًا تسلقه عشرةٌ من ذوي الشجاعة والبطولة، وسألهم الحرس: من أنتم؟ فلم يجيبوا، وتتابع المهاجمون السعوديون في الصعود والتسلق إلى الداخل. وكانت كل فرقة عند اكتمالها داخل السور تتوجه إلى الجهة المُعَيَّنة لها، وبعد تكاثر المقاتلين في الداخل حدثَت ضَجَّةٌ وجلبةٌ داخل الحصن، فاستيقظ العساكر والأهالي من نومهم، واستولى عليهم الخوف، وحلَّ بهم الذعر، فلا يدرون من المهاجمون؟ ولا من المقاتلون؟ وعلت الأصوات، وأطلقت البنادق نيرانها. وأمر الملك لعزيز أحد رجاله أن يصعد إلى السور، وينادي: المُلك لله، ثم لعبدالعزيز، من أراد العافية فليلزم مكانه. وسمع الناس الصوت، فاستبشروا، وهتفوا: أهلًا وسهلًا، وسمعًا وطاعةً، وجاؤوا بالمياه لرجال الملك، ورحَّبوا بهم، وهللوا بمقدمهم.

وفور دخول الملك البلدة توجَّه إلى منزل الشيخ عبداللطيف المُلا، وأعلم أعيان المدينة بوجوده هناك، فجاؤوا مسرعين يبايعونه على الحكم، ويقدمون له الولاء والطاعة. أما جنود الحامية التركية فقد لجؤوا إلى الحصون، واعتصموا بداخلها. وبعد انبثاق الفجر شرعوا يطلقون البنادق والمدافع

على غير هُدى، وعند الظهر جِيء للملك عبدالعزيز بأسير من الأتراك، وهو ضابطٌ طاعنٌ في السن، فأرسله الملك رسولًا إلى المتصرف وإلى قائد الحامية، وقال له: قُل لهم أن يسلِّموا إذا كانوا يبغون العافية، ونحن نؤمِّنهم، ونرحِّلُهم إلى بلادهم، أما إذا أبَوا فليستعدوا للقتال، فسنهاجمهم في مراكزهم ساعة هاجمنا البلد ليلة البارحة.

وبلَّغ الرسول الرسالة، وقَبِل الأتراك الأمان، ثم سَلَّمت الحامية التي كان عددها ألفًا ومئتي جندي. وأذِن الملك عبدالعزيز لهم بالرحيل، وقال لهم: «لا ننزع من الجندي العثماني سلاحه، أما المدافع والذخائر فتبقى في مكانها في الحصون». ثم جهزهم بالركائب، ورحَّلَهم وعائلاتهم وأمتعتهم من الهفوف إلى العُقير، وأرسل معهم أحمد بن ثنيان، وهو الرجل الذي أرسله إلى الوالي التركي في بغداد؛ وذلك ليؤمِّن لهم الطريق، ويسهل لهم الرحيل. ومن العقير أبحروا إلى البحرين.

وبعد أن اطمأن الملك، وسيطر على الهفوف، وتحقق له عودة ذلك الإقليم بعث سريةً بقيادة عبدالرحمن بن سويلم إلى القطيف، فتمكنت من دخولها دون صعوبة؛ فلم يكن للأتراك

في القطيف سوى شرذمة قليلة من الجنود، فرُّوا في السفن هاربين حين رأوا القوات السعودية قادمة. وهكذا تحقق للملك توحيد الساحل الشرقي، والسيطرة على منطقتي الأحساء والقطيف، ورُفعت راية المَلك هناك، وصار للوطن منفذٌ بحري وساحلٌ خليجي، ورئةٌ يتنفس بها مع العالم، ولم يعد معزولًا في صحرائه، وأصبح ذلك الإقليم الغني بخيراته مصدر تموين، ومكان تجارة، ومقرَّ اتصال.

إن المناطق الداخلية من الوطن التي تمَّت سيطرته عليها لا تستطيع أن تُقدم الموارد الكافية للتموين وتجهيز المقاتلين. إن الحرب تأكل الأخضر واليابس، إنها استنزافٌ ماليٌّ، وإنهاكٌ اقتصاديٌّ، ومن أين المال؟ إن البطل يعرف وطنه، وشُح موارده، ولقد ذاق الفقر، واكتوى بآلامه، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمحمد أسد: «بلغ مني الفقر مبلغًا عظيمًا، حتى إنني اضطررت إلى أن أرهن سيفي المرصَّع بالجوهر -الذي كان الشيخ مبارك قد أعطانيه- لدى مُرابٍ يهودي في الكويت، إنني لم أكن أستطيع أن أبتاع حتى سجادة لشدادي. ولكن الأكياس الفارغة التي كنت أضعها تحت الجاعد[1] تقوم مقامها».

(١) الجاعد: جِلد يُوضع فوق ظهر الراحلة.

إذا كانت هذه حالته المالية فكيف يقود الأمة؟! وكيف يجهز الجيوش؟! إنها الثقةُ بالله، والإرادة والعزيمة. فها هي الأقاليم الغنية بالخيرات الظاهرة والباطنة تنضم وتعود، وبعد رحيل الأتراك حدث أن وجدوا في البحرين من زيَّن لهم الرجوع إلى العُقير، الميناء الحيوي آنذاك في الساحل الشرقي، ولهذا استولوا على مركب يحمل تمرًا، وركب فيه فريقٌ منهم، وعادوا إلى العُقير، فهجموا ليلًا على القصر، فردَّتهم الحامية خائبين، ثم هجموا على مركزين آخرين كان في كل واحد منهما ثلاثون رجلًا، فهزمهم الأتراك، واحتلّوا مراكزهم.

وجاءت الأخبار للملك الظافر، وهو في الهفوف، فشدَّ الرحال، وسارع إلى العُقير، فوصلها في الساعة الثانية من الليل. وكان قد أرسل كوكبةً من الفرسان تسبقه، وحين وصلت وجدت أن الحامية الموجودة هناك هاجمت الأتراك، وهزمتهم، وأسرت منهم ثلاثين مهاجمًا، وعفا الملك عنهم، فأخلى سبيلهم، وأركبهم البحر مرةً أخرى، ومن البحرين ركبوا السفن إلى البصرة، ومكث الملك في الأحساء فترةً من الزمن، حتى اطمأن على الأمور، وأمَّر فيها الأمير عبدالله بن جلوي، وعيَّن في القطيف عبدالرحمن بن سويلم أميرًا لها، وعاد إلى الرياض

في العشر الأواخر من رمضان، وأوصى الملك أمراءه بالعدل بين الرعية، وبمحاسبة المجرمين، ومطاردة قُطّاع الطرق.

وكانت الطرق في الأحساء في عهد الأتراك مَخُوفةً مَرهوبة. كانت لا تُعبَر إلا بقوة عسكرية أو بدفع (خوة)[1]. وكان الطريق بين العُقير والأحساء -وهو طريق التجارة إلى نجد- أكثر الطرق خوفًا وخطرًا. كان التاجر الذي يروم الوصول إلى الهفوف مسافة أربعين ميلًا يضطر إلى أن يدفع الخوَّة كلما اجتاز خمسة أو عشرة أميال من هذا الطريق المخيف. إنه طريق التجارة والأموال، ولكنه طريق الموت والهلاك. إنه طريق النهب والسلب والزعامات المتعددة. وقد جاء لهذا الطريق عددٌ من القبائل، وأقاموا حوله، وصار لكل قوم جزء، والويل لمن مرَّ به، ولم يدفع لهم.

كان يجيء التاجر من البحرين، فيدفع خُوَّة قبل أن تطأ قدمه العُقير، ثم يدفع خُوَّة أخرى من العقير إلى النخل، ثم ثالثةً من النخل إلى أم الذرِّ، ثم من أم الذرِّ إلى العلاة... وهكذا، خوفٌ، وسلبٌ...!

(١) الخوة: مبلغ من المال يُسلَّم لرجال البادية المسيطرين على الطريق، فلا يجتاز موقعهم أحد إلا وقد سلم مبلغًا من المال، وإلا فالويل له.

وإذا خرج عسكر الأتراك لتأديب أحد من عشائر البادية المحيطة بهم طاردهم أولئك البدو، وأخذوا خيلهم، وسلبوا ثيابهم، وأجبروهم على العودة إلى الأحساء حُفاةً عُراةً، ثم يجيء البدوي من أولئك الأعراب راكبًا حصان الجندي التركي ليُنَعِّلَه على مرأى ومشهد من السلطة المدنية داخل الأحساء، وتولى الملك عبدالعزيز الأحساء وهذه حالتها الأمنية؛ ولهذا نادى: الأمنَ الأمنَ، العدلَ العدلَ. وشرع أمير الأحساء من قِبَلِه عبدالله بن جلوي يبسط العدل، ويلاحق المجرمين.

ويذكر الريحاني صورًا من الأمن الذي تحقق بعد تلك الفوضى وبعد السلب والنهب والخلل والخطل، فمما رواه يقول: مررنا في النفود بجمل بارك، رازح تحت حِمله، فسألت عن صاحبه؟ فقيل: إنه سار في طريقه، وسيرجع بعد أن يصل إلى البلد بجملٍ آخر يحمل البضاعة. وقد يموت الجمل الرازح، ويبقى حِمله على قارعة الطريق عشرة أيام، ويعود صاحبه إليه، فيجده -وما مسَّته يدٌ بشرية- كما تركه في مكانه. إنه الأمن الذي ساد، والعدل الذي تحقق.

ويورد الريحاني صورة أخرى من صور العدل، يقول: جاء رجلٌ ذات يوم إلى الأمير عبدالله بن جلوي يشكو ولدًا ضربه، وشتمه.

فسأل عبدالله: من الولد؟

فقال الرجل: لا أعرف اسمه.

فقال عبدالله: وهل تعرفه إذا عاينته؟

فأجاب الرجل: نعم.

فأمر الأمير أن يُجمَع عنده أولاد ذاك الحي، فأحضروهم كلهم، وجاء الشاكي، فنظر إليهم، وأشار إلى الولد الجاني؛ إلى غريمه.

فهمس أحد الحضور في أذنه، وقال له: إنه ابن الأمير.

فجمجم الرجل ببعض الكلمات، أراد بها الاعتذار والعدول.

وردَّه الأمير، وسأل الولد: فأقرَّ بذنبه.

وأمر الأمير العبيد أن يبسطوه أمامه، وأن يقدموا للشاكي عسيبًا أخضر من النخل، وتَردد العبيد، وأحجم الرجل، وأخذ الأمير القضيب بيده، وشرع يضرب ابنه، ويقول: إذا كُنا لا نبدأ بأنفسنا فكيف نعدل في غيرنا؟! إنه يُجسد العدل في أروع صُوَره، ويضرب المثل في فلذة كبده، هؤلاء أمراء الملك

عبدالعزيز يحاكون عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عَدله، حين استدعى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابنه إلى المدينة؛ فقد تسابقت الخيل، وفاز حصان المواطن المصري، وغضب ابن عمرو، وضرب صاحب الحصان، وقال: خُذها وأنا ابن الأكرمين. وجاء المصري إلى المدينة، واشتكى، واستدعى عُمر أمير مصر وابنه، وحين تأكد من حقيقة الأمر أمر المصري أن يضرب ابن عمرو، وأن يقتص لنفسه، وأن يُجِيلَ العصا على صلعة عمرو، ويقول: ما ضربك هذا إلا بسلطان هذا. ويا عَمرو، متى استعبدتم الناسَ، وقد ولدَتهم أمهاتهم أحرارًا؟!

ويقول الريحاني في صورة ثالثة: «كنا في العُقير نحتاج إلى الكثير من الحطب، وكان يجيء البدو بأحمالٍ منه يبيعونها إلى رؤساء الخدم بأسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان، ولعلمهم بحاجة الملك عبدالعزيز وضيوفه». ووقف يومًا أحد هؤلاء الحطابين ومعه أربعة جمالٍ محملة، فساومه مندوب الملك عليها، فطلب الجمّال رُوبيتين، والحمل كله يساوي نصف روبية، ثم خفَّض الجمّال القيمة إلى روبية ونصف روبية، فرفض مندوب الملك شراءها؛ فالقيمة عالية. وساق الجمّال جِماله، فناداه المندوب، ودفع له روبيةً، فأبى الجمّال. فغضب

المندوب، وشتم الجمّال بعد أن تولَّى، وأدبر، وقال وقد تأوَّه: والله لولا الشيوخ -يقصد الملك عبدالعزيز- لأدبتك أيها الجمّال.

ويقول الريحاني: «لو كُنّا في معسكر تُركي أو أوروبي، وكان الجيش في حاجة إلى الحطب فهل تظن أنهم كانوا يعاملون هذا الحطاب مثل هذه المعاملة؟! بل كانوا يكرهونه على البيع بما يريدونه، ثم يُسخِّرونه للخدمة دون رغبته. لولا الشيوخ -يقصد الملك عبدالعزيز- لفعل الخدامون بالبدو الحطّابين مثل هذه الفعلات. ولكن حقَّ البدو يُعْطَونه وحقهم أن يبيعوا ما يملكون بما يشاؤون. أما حق ابن سعود فيُؤخَذ منهم بالعدل.

وروى لي أحد الثقات قصةً عن أبيه يقول فيها: قدمنا من الأحساء ذات عام، ومعنا عددٌ من الإبل، وكانت تحمل هيلًا وقهوةً وسكرًا، وفي الطريق فقدنا أحد الجمال، وبحثنا عنه، وبعد يومين وجدنا إبلًا تمشي على البُعد، ومعها عددٌ من رجال البادية، وحين اقتربنا أطلق أحد رفاقنا النار في الهواء تحذيرًا وتخويفًا، ووصلنا إلى القوم، وسألناهم عن الراحلة، فقالوا: ها هي مع الإبل وعليها حِملها لم يُمس. قلنا: رُدوها علينا، أخرجوها من قطيعكم. فقالوا: سمعًا وطاعة. وتنهد عددٌ منهم، وقالوا: كيف تطلقون النار، والله لولا ابن سعود ما تجرأتم، ولولا ابن

سعود لما أعدناها، ولأخذنا بقية إبلكم غنيمةً وسلبًا. ادعُوا لابن سعود. ادعُوا لأميره في الأحساء عبدالله بن جلوي. هذه صورة من الأمن والعدل الذي تحقق.

رَحم الله الملك عبدالعزيز؛ فقد ألزم نفسه هذا المنهج، وورَّثَه أبناءه، وجعل الشريعة الإسلامية أساس الحكم، ومنهج الدولة السعودية. ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١] إن هذه المعاملة العادلة جعلت مناطق المملكة تحنُّ إليه، وأقاليم الوطن تتلهَّف إليه ، وتمدُّ له الأيدي، وينادي سكان كل منطقة باسمه، وينشدون وصوله، ويطلبون زعامته.

☚ وفي الفصل القادم حديثٌ عن الحرب المُهلكة، وكيف تعامل معها؟ وكم حارب في أثنائها من خصومٍ وأعداء؟

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

من إصـداراتنـا

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ السَّادِسُ

مُحايدٌ ومُحارِبٌ

... وقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، وأكلت الأخضر واليابس، ومزّقت العالم، ودمرت الاقتصاد، وصارت الدنيا أحلافًا وأنصارًا، ونظر الملك البطل إلى هذه النار المُحرقة، وهو يُوحد أجزاء الوطن الممزَّق، ويُلملم العقد المنتثر، ويُعيد بناء دولة كان لها تاريخ عريق، وماضٍ مجيد، فما أحوج الأمم إلى العباقرة من الرجال والعظماء من القادة حين تشتد الخطوب، وتختلط المصالح!

وتلاطمت جيوش دول التحالف، وقُذفت المدن، ودُكَّت الحصون، وهَبَّ الرسل من كل فريق يخطبون وُدَّ هذا، ويُمَنُّون ذاك، وخشي الملك عبدالعزيز أن يصل الصراع إلى بلاده، وأن يمتد الخلاف إلى الجزيرة العربية، فتحرقها نار الحرب. إنه يعرف أن الحرب شرٌّ وبلاءٌ، وأنها بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قِيل لعنترة الفوارس: «صفْ لنا الحرب. فقال: أولها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى».

ولهذا رغب أن يوحِّد الرأي مع جيرانه، فكتب إلى الثلاثة البارزين منهم، وهم ابنُ رشيد، والحسين بن علي، وابنُ صباح، وقال في رسالته إليهم: «أرى وقد وقعت الحرب أن نجتمع للمذاكرة؛ عسى أن نتفق على ما يُنقذ العرب من أهوالها، أو نتحالف مع دولةٍ لصون حقوقنا وتعزيز مصالحنا». وكان جواب أولئك الجيران مختلفًا، ومختلطًا، ومُحيرًا وعجيبًا. فالأمير المحارب الدائم ابن رشيد ردَّ على الملك بقوله: «إن أنور باشا -يقصد الوالي التركي في العراق- قد أرسل إليَّ عشرة آلاف بندقية، وبعد أن أكسرها عليك وعلى رجالك أفكر في الصلح معك والقيام على الترك». أما الآخر اللابس ثياب الصديق، الحسين بن علي، فأجاب الملك بقوله: «سأرتقب الفرصة لعمل ما أراه». وكان جواب مبارك الصباح: «إن في ميناء الكويت باخرةً بريطانية، فاحضر، وقابل رُبانها، وأنا معك على ما تتفقان عليه». ولم تفلح الدعوة؛ فالرغبات متباينة، والأمور مختلطة، ولم يتم التعاون، ولا صار اتفاق.

وقرر الملك البطل الحياد، والبعد عن مناصرة هذا، أو عداء ذاك. إنه في حاجة إلى المال، ومع ذلك ابتعد، وفي حاجة إلى السلاح، فكبح رغبته، ولزم الحياد. إن مجاهدة النفس

بطولةٌ وعظمةٌ، ومقاومة الحاجة شجاعة وإباء، وإن المرء ليحارُ أمام هذه الأحداث الجسام، ويتأرجح تجاه تلك الأمور العظام، وكيف يعمل؟ وبمن يثق؟ وما النتائج؟ ومن الذي سينتصر في تلك الحرب العالمية المُهلكة؟ هل هم الحلفاء أو الألمان ومن ناصرهم؟

وجاءته الوفود إثر الوفود تَنشد وُدَّه، وتطلب عونه وانضمامه، فقد أرسل الإنجليز رُسُلهم يذكرونه بعداء الأتراك، وبأنهم جيرانه الأقربون في الخليج والخط البحري الممتد منه إلى الهند، وحاول السير (برسي كوكس) أن يُغري الملك عبدالعزيز بإعلان الحرب على الأتراك، وأكَّد له أن بريطانيا سوف تساعده بالمال والسلاح، ولكنه اعتذر عن ذلك.

وجاءه وفدٌ من تركيا ينشدون وُدَّه، ويطلبون انضمامه، وقال للوفد التركي: إنه محايد، ولن يمنع تجار نجد من المساعدة على تموين الجيش التركي بالأرزاق. والتزم بوعده، وبقي على الحياد، في حين رأى الحسين بن علي في الحجاز أن يقوم على الأتراك، ويناصر الإنجليز، ويُعلن أنه ملك العرب. ولم يتعرض للقوة التركية الموجودة في عسير واليمن، بل ترك رسل الأتراك وأموالهم تغدو، وتروح بين اليمن والشام عن طريق بلاده.

إنه العقل وبُعد النظر. يقول الأمير شكيب أرسلان: «لما اشتعلت الحرب العامة راسلَت الدولة -تركيا- الأمير ابن سعود في خوض غمراتها إلى جانبها، فلم يُجب طلبها، لا كُرهًا لها، بل خوفًا على بلاده من الإنجليز، ولا سيما بعد أن رأى تقدمهم في العراق، على أنه من الجهة الثانية لم يأتِ عملًا تَقدر أن تعاقبه الدولة عليه، على الرغم من مساعي الإنجليز لديه في ذلك، فكانت خُطَّته في هذه الحرب التزام الحياد التام».

وجاءت الإغراءات، وتوالت الرُّسل، وتتابعت الخطابات، وبقي يرقب الأمر، ويدفع عن وطنه ويلات الحرب ومآسي النزاع، ووصلته رسالةٌ من ماجد بن عجيل، شيخ عبدةَ من شيوخ شمَّر، يطلب فيها من الملك عبدالعزيز الصلح معه، وأن يتوسط بإصلاح ما بينهم وبين الإنجليز. فأجابه الداهية العظيم بقوله: «إني أُنذركم يا شمَّر، إذا كنتم مخلصين لنا فتعالوا أقيموا في كبدي، وأما إذا كنتم تفاوضون الإنجليز، وتساعدون الترك، فأنا عدوُّكم والله، وقاهركم إن شاء الله». ويصل إلى الرياض الوكيل السياسي البريطاني في الكويت الكولونيل هاملتن، ومعه المستر جون فيلبي، والكولونيل أوين، وتدور الاجتماعات، وتطول المناقشات، ويظل الملك البطل على الحياد، حتى إنه حين تحدث معه السير برسي

كوكس، المقيم البريطاني في الخليج، وذكَّره بالخلافة وانتقالها إلى العرب، وسأل الملك عبدالعزيز في أن تكون له، رفض الملك ذلك، وبيَّن لكوكس أنه لا يطمع فيها، ولا يريدها.

لك الله أيها العظيم! في أية مدرسة تعلمت؟! وفي أية كلية تخرجت؟! إنه الإغراء، ولكن العقل سيد الموقف، ثم الحذر وبُعد النظر.

وفي هذا الجو القاتم، والحرب المُحرقة، والوفود المتعددة جاءت إلى الملك عبدالعزيز الأخبار بأن سعود بن عبدالعزيز بن متعب بن رشيد الذي تولى إمارة حائل يستعد لمقاتلة الملك عبدالعزيز، وأنَّ الأسلحة التي وصلت إليه من تركيا والأنصار الذين توافدوا عليه من فئات شمّر من داخل الجزيرة العربية والعراق زادت من حماسته، وأنه سار بمن انضم إليه من الحاضرة والبادية، ووصل إلى قُبَه شرق الأسياح بالقصيم، ثم تحرك لمهاجمة الملك البطل. وتذكر الملك عبدالعزيز رسالة ابن رشيد التي يقول فيها: «عشرة آلاف بندقية أكسِّرها عليك وعلى رجالك»، وعرف أن ابن رشيد قابل الوالي التركي في البصرة، وتسلَّم منه السلاح والذخائر وشيئًا من المال.

وهبَّ الملك مسرعًا بعد معرفته للأمور لملاقاة هذا الخصم الطامع، وسار لملاقاته، والتقى الجيشان على ماء

جراب شمال شرقي مدينة الزلفي يوم ٧ من ربيع الأول عام ١٣٣٣هـ، ١٩١٥/١/٢٤م، وكان مع الملك عبدالعزيز خيالةٌ من بعض القبائل، ودارت رحَى الحرب، وتصادم الفرسان، واعتزَّ كل فريق، وانتخى كل مقاتل، وحمي الوطيس، واشتد الهول، وفرَّ من جيش الملك عبدالعزيز بعض رجال البادية في أثناء المعركة، فأغارت بادية ابن رشيد على جناح السعوديين الأيسر، فأزاحوه، واندفعوا إلى الخيام ينهبونها، وشاركهم في النهب بعض الأعراب ممن كانوا مع الملك عبدالعزيز، وفرُّوا، وهذا ما آلم الملك البطل، وآذاه، وأغار أعرابٌ آخرون على مخيم ابن رشيد، فجردوه مما فيه، وساقوا ما وراءه من الإبل غنيمةً باردةً.

وذُهل القائدان، الملك عبدالعزيز وابن رشيد، من رجال البادية الذين معهم، وكيف باتوا ينهبون، ويسلبون، فتوجه كل زعيم يطارد الناهبين، ويلاحق الطامعين، وكلٌّ منهما يتميز غيظًا من هؤلاء الأعراب الجُناة، واختل نظام المعركة، وتفرق الجمعان، لا غالب ولا مغلوب، لكن ظلَّ في الفؤاد حسرةٌ من رجال البادية الناهبين، وفي الفؤاد لوعةٌ من القساة الطامعين، وفي الكبد جُرحٌ من أولئك الذين ولاؤهم للمال، وحبهم للنهب، وكأن الشاعر القطاميَّ عناهم بقوله منذ العصر الجاهلي:

وَأَحْيانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينا
إِذا ما لَمْ نَجِدْ إِلّا أَخانا

ورحل أولئك الأعراب بالغنائم والأسلاب، ورجع أولئك الجناة وهم يتغنون، ويتراقصون بما تحقق لهم من كسب ومال، وغضب الملك عبدالعزيز على العُصاة من رجال تلك القبيلة التي خانته في الوقت الرهيب، وغلبها الطمع، فأخذت قسمًا من إبله مع أنها جاءت محاربة معه، ووصلت ضمن مقاتليه وأنصاره، وبعد تلك المعركة التي لم ينتصر فيها أيٌّ من الفريقين، ورد للملك عبدالعزيز كتب من أمير الكويت، يشكو فيها إحدى القبائل التي نهبت قافلة من قوافله، ويطلب تأديب تلك القبيلة، ورد منهوباتها، وقد حار الملك في الأمر، فكيف يستجيب لهذا النداء ولهذه الدعوة وهو بين ذئاب الأعداء، فابن رشيد خَصمٌ يحاربه، وأولئك الأعراب تمردوا، وخرجوا عن الطاعة، وابن صباح يكتب ويُلح، والحرب العالمية قائمة، والمصالح مختلطة. إنها مواقف تحيِّر أمهر الدُّهاة، وتُربك أعظم القادة.

وتمهَّل الملك، وتريَّثَ في الاستجابة لدعوة مبارك بن صباح، وأجَّلَ ملاحقة أولئك العُصاة وتأديبهم؛ فهم أعرابٌ شَذُّوا، وبُغاةٌ نفروا، والصحراء أمامهم، والوقت فيه مُتسع

لمحاسبتهم، وفي الأفق ما هو أهمُّ، وفي الميدان ما هو أوجب، ولكن توالت رسائل ابن صباح إلى الملك عبدالعزيز يطلب تأديب المذنبين وردَّ المنهوبات، وبينما الملك في شقراء وصل إليه النجاب[1] من ابن صباح، وفي الوقت نفسه جاءَه رسولٌ من قِبَل ابن رشيد يطلب الصُّلح، وينشُد المعاهدة، ووزن الملك الأمور، ورأى بثاقب عقله أن يؤخِّر مُلاحقة أولئك الأعراب، فلا يقع تحت سيطرتهم إقليمٌ مطلوبٌ توحيده وضمُّه إلى الوطن، وإنما هي معركةُ تأديب وحملةٌ أمنيةٌ على هؤلاء الأعراب، ولهذا أرسل كتابًا إلى ابن صباح يقول فيه: «... قد نالني منهم أكثر مما نالك، فصبرت، وتحمَّلت، ونحن الآن في وقت القيظ، ولا نتمكن من شدَّته أن نسير بجيشٍ إلى ديرتهم. والأمر الثاني هو أني في ريب من صُلح ابن رشيد، فأخشى أن ينكُث العهد إذا أنا غادرت نجدًا، ودخلت في حرب معهم. والأمر الثالث نفقات هذه الحروب، وقد تكاثرت عليَّ، فضاقت في سبيلها الأسباب. والأمر الرابع -يا حضرة الوالد- هو أني أخشى أن يلجؤوا بعد الحرب إليك، فتنقلب عليَّ، ومن رأيي في كل حال أن نؤجِّل المسألة إلى ما بعد الصيف».

---

(١) النجاب: ناقل الرسائل وبريد الأمس.

وذهب الرسول بالرسالة، وقرأها الشيخ مبارك، وعرف رأي الملك عبدالعزيز، ولكنه ظلَّ عند رأيه، وكتب إلى الملك عبدالعزيز يقول: «ولَدي عبدالعزيز، إن الأمر لا يُؤجَل ولا بُدَّ من تأديبهم وإرجاع المنهوبات». وردَّ الملك عبدالعزيز عليه: «والدي الشيخ مبارك، إنهم لا يُرجعون ما ينهبون إلا مُكرهين، إلا بالحرب». ثم قال: «إذا عزمتُ على مُحاربتهم تعطيني عهد الله وميثاقه أن تُعينني بالمال والرجال، وألا تسلك في سياستك معهم مسلكًا غير مسلكي، ولا تستقبلهم إذا لجؤوا إليك، ولا تتوسَّط بالصلح بيني وبينهم» وردَّ الشيخ مبارك على الملك عبدالعزيز بالموافقة، وعاهده على ما طَلَبه. وبعد ذلك توكل الملك عبدالعزيز على الله، وزحف لتأديب العصاة من أولئك الأعراب، وقمع شوكتهم، ورد منهوبات الشيخ مبارك، فإنه كما قال الشاعر القديم سعد بن ناشب التميمي:

إِذا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيهِ عَزْمَهُ

ونَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَواقِبِ جانِبا

ومشى بفرقة صغيرة من الحاضرة والبادية في صيف عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، وتوجه إلى منطقة الأحساء، حيث يقيمون هناك، ووصل في شهر شعبان، وانضم إليه آخرون من

حاضرة الأحساء وباديتها، ثم انطلق الجميع لمهاجمة العُصاة من رجال تلك القبيلة الجانحين، وعلم أولئك الأعراب بقدوم الملك، ففرُّوا، واتجهوا إلى قطر، ولحق بهم الملك، وكان الحرُّ شديدًا لا يمكن معه السير والمشي في النهار، فكيف بالقتال؟!

ولم يكن مع الملك من الرواحل إلا القليل؛ ولهذا كان السير على الأقدام، ولحقوا بهم، وقد عسكروا في موقع قريب من الأحساء يسمى كَنْزان، وهو جبلٌ حوله بعض موارد المياه، وكانت أشجار النخيل في الليل تبدو من بُعد وكأنها بيوتٌ من الشَّعر. وأوقد أولئك الأعراب النار لإيهام رجال الملك عبدالعزيز أنهم مقيمون في ذلك الموقع، وانسحبوا عن خيامهم، واختبؤوا في ملاجئ آمنة، ووصل المحاربون السعوديون، وشرعوا يطلقون الرصاص على ما كان أمامهم من أشجار وخيام؛ ظنًّا منهم أن الرجال في داخلها، وأوشكت الذخائر أن تنفد، وتقدم جنود الملك عبدالعزيز للخيام والأشجار. وما إن رآهم أولئك الأعراب، وقد تقدموا حتى خرجوا من مكانهم، وأحاطوا بهم، واشتد الهول، وعلا الصياح، وقويَ العراك، وكانت الفوضى، واضطرب الأمر، وقُتل أخو الملك الأمير سعد بن عبدالرحمن، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.

وبينما الملك يصول، ويجول إذ لحق به اثنان من المرافقين لأخيه سعد، فقال لهما: أين سعد؟

قالا، وقد أطرقا: لقد قُتل، لقد سبقَك إلى الجنة.

قال، وقد هالَه الأمر: أنا أخو نورة، سعدٌ لم يُقتل، لقد أُصيب، وهُزمتم. أين تركتموه؟

قالوا: يا عبدالعزيز، إن الأعداء كانوا قابضين على زمام فرسه، وقتلوه، ونحن ننظر إليه.

وزمجر البطل، ولوى حصانه، وراح يبحث عن أخيه، وزادت النبال، وكثرت السهام، وشكا الحصان للفارس، وكأنه يردد قول عنترة:

ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثَغْرَةِ نَحْرِه

ولَبانِهِ حَتَّى تَسَربَلَ بِالدَّمِ(١)

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بلَبانِه

وَشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ(٢)

---

(١) اللّبان: الصدر. وتسربل بالدم: لبس قميصًا من الدم.

(٢) ازوَرَّ: مال. التحمحم: صوت الفرس المتقطع.

لَـو كانَ يَـدْري مـا المُحـاوَرَةُ اشْـتَكَى

وَلَـكانَ لَـو عَلِـمَ الـكَلامَ مُكَلِّمِـي

ورأى البطـل أخـاه مُلقًـى علـى أرض المعركـة، فنـزل عـن فرسـه، وصار يُقبله. ولعله أنشد قول الشاعر كعب الغنوي، وهو يرثي أخاه:

أَخٌ كانَ يَكْفِينِـي وَكانَ يُعِينُنِـي

عَلَـى نائِبـاتِ الدَّهْـرِ حِـينَ تَنُـوبُ

فَـواللَّـهِ لا أَنْسـاهُ مـا ذَرَّ شَـارِقٌ

وَمـا اهْتَـزَّ فِي فَـرْعِ الأَرَاكِ قَضِيـبُ

هـذه هـي الأُخـوَّة، وهـذا هـو الوفـاء، وتلـك هـي المـروءة، وذلـك هـو الثبـات، وإنها الشـجاعة؛ هـولٌ، وموتٌ، ونـارٌ، وصدامٌ، ويذهـب بنفسـه؛ فلـم يُصـدق الخبر، ويـرى أخاه مُجنـدلًا، وينـزل مـن فـوق حصانـه ليُقبِّـل العزيـز الغـالي، ويُودِّع الحبيـب الراحل.

وتكاثـر القـوم علـى البطـل، وأطلقـوا رصاصهـم، فأصابـت رصاصـة حزامَـه المملـوء بالرصاص، وانفجـرت أربـع رصاصـات مـن حزامـه، وأصابتـه بجـراح خطيـرة. وصـاح الصائـح: جُـرِح عبدالعزيـز، أُصيـب عبدالعزيـز، قُتِـل عبدالعزيـز، هُـزِم

عبدالعزيز. ولكن الملك الشجاع والداهية المُحنَّك تجلَّد، وصبر، وكأني به يتمثل بقول أبي ذُؤيب الهُذلي:

وَتَجَلُّدِي لِلشّامتينَ أُرِيهُمُ
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

وربط جُرحه، وعاد إلى ميدان المعركة، ولمح الجندَ، وقد ضعُفت معنوياتهم، وخارت عزائمهم، وتزعزعت شجاعتهم، فقد رأوا قائدهم قد أُصيب، وشاهدوا أخاه قد قُتل، وهتف البطل في الجنود، وانتخَى: «إياك نعبد وإياك نستعين، أيها الإخوان، لو أني بقيت وحدي دونكم فلن أتقهقر، لقد عزمت على أن أُدفَن هُنا، أو أبلُغ النصر، من شاء أن يبقى معي فليعمل مشكورًا، ومن شاء أن يعود إلى أهله فليرجع غير مأسوف عليه». وصال البطل في الجموع، وجال، ورَدَّد في المقاتلين نخوة البطولة والشجاعة، وتحركت النخوة والحميَّة لدى جنوده، واهتزت مشاعرهم، وزادت حماستهم، وصاحوا: نحن معك يا عبدالعزيز، حتى الشهادة.

وأسرع الداهية العظيم، والقائد الماهر، والحكيم البارع، واتخذ قرارًا عجيبًا، وموقفًا غريبًا، ونفَّذ حِيلةً مُحيرة نادرة الوَقع، تكاد تكون خيالًا لغرابتها. فقد قال لرجاله بعد أن ثبَّتَهم، وحرك النخوة فيهم، وربط جُرحه، وتجلَّد، وصبر: أريد الزواج.

وذُهل الرجال، ودُهِش السامعون، وعجب الحاضرون، أحقٌّ ما يقولُ أم خيال؟! وهل الملك جادٌّ وجازمٌ أم مازحٌ وهازلٌ؟ وهل الموقف يتحمل الزواج والطرب؟ وإن كان الأمر جدًّا فمن أين يأتون له بزوجة؟ إنها الليلة الرهيبة، إنه الموت الزؤام، إنها النار المُحرقة، ثم ماذا عساه يريد بها وهو الجريح المصاب، وأخوه قتيل، وأنصاره شَذَر مَذَر؟! إن أمرك عجيبٌ يا عبدالعزيز! إن طلبك غريبٌ يا سيد الأبطال!

ونظر بعضهم إلى بعض، وتساءلوا بعيونهم، وتهامسوا بقلوبهم، وأصرَّ الملك على الزواج في تلك الليلة الليلاء، وبحثوا، ووجدوا امرأة سرَّها أن تكون حليلةً للملك، وأسعدها أن تكون زوجةً للبطل. وجاؤوا له بتلك المرأة، وأدخلوها إلى خيمته. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحضروها إلى خيمتي، كُنتُ أنظر إليها من بعيد، فأراها كومةً سوداء أمام عينيَّ» لم يمس المرأة، ولم يشعر بوجودها، ولكنه الذكاء والعظمة، والدهاء والسياسة، فقد تحدث الرجال عن هذا الزواج، وشاع الخبر أن عبدالعزيز تزوَّج، ووصل النبأ إلى المحاربين، فقال رجال الملك: إنه بخير، والحمد لله.

وقال الغُزاة: كيف يتزوج من قُتِل؟ كيف يتزوج من هُزم؟

إن أخبار هزيمته باطلة، إن أنباء مقتله كاذبة. خبرٌ مضادٌّ، وإعلانٌ معاكسٌ، دلَّ على بارع ذكاء القائد، وعظمة فكر

البطل، واضطرب الأعراب، وتقهقروا، وعاد الملك عبدالعزيز برجاله إلى الأحساء، وبقي الملك في الأحساء قرابة ثلاثة أشهر، وأولئك الأعراب حول الأحساء يمرحون، والملك يتميز من الغيظ عليهم.

وكتب الملك يطلب النجدة من أبيه في الرياض ومن مبارك الصباح الذي دفعه لقتالهم، وعاهده على المساعدة والعون. وجاء أهل نجد يتسابقون بقيادة الأمير محمد بن عبدالرحمن، وأرسل ابن صباح ابنَه الثاني سالمًا بقوة قوامها مئةٌ وخمسون رجلًا، وحين وصلت تلك القوات خرج الملك عبدالعزيز بمن معه، وشنَّ الهجمات على أولئك المتمردين من الأعراب، فانسحبوا من مواقعهم، واتجهوا شمالًا، ثم أرسل الملك عبدالعزيز أخاه محمدًا لمطاردة أولئك الجناة وتأديبهم.

وهكذا عاش في أثناء الحرب الكبرى في الحياد والبُعد عن تلك الدول، ولكنه اكتوى بحروب في الداخل، وبملاحقة عُصاة ومتمردين، وقد وفَّقه الله في إنهاكهم، وحقَّق الله له العز والمجد، فمِن نصرٍ إلى نصرٍ.

☚ وفي الفصل القادم عرضٌ لبطولةٍ أُخرى، وتحدٍّ آخر.

للنشر
العبيكان
Obeikan
Publishing

إحدى شركات

للاستثمار
العبيكان
Obeikan
Investment Group

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ السَّابِعُ

مَعركة تَلِد

جاء في الأثر: «من رأى حَضنًا فقد أنجدَ». وحضنٌ: جبلٌ يفصل بين نجد والحجاز وعلى مقربة من هذا الجبل تقع بلدتا تُربة والخُرمة.

وسكان هذه المناطق قد اقتنعوا بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وصار ولاؤهم لآل سعود الأوائل، ودارت الأيام، ومضت السنون، وتغيرت الأحوال، وكثرت الأطماع، وتوالت حروبٌ، وقامت فتنٌ، وظهرت زعاماتٌ، وبرز في نجد أسَدٌ حنّت إليه المدن، وعظيمٌ تسابقت نحوه الأقاليم، أخذ يعيد مُلك آبائه، ويسترد مجد أجداده، وجاءته الوفود من تلك المنطقة تشكو حالها، وتُعلن ولاءها، وتؤكد أنها له، وليست للحسين بن علي ملك الحجاز آنذاك.

وقدم إلى الرياض أمير الخرمة، خالد بن لؤي، يشكو إلى الملك عبدالعزيز ظلم الشريف، ويطلب معونته، فقد سبق أن سجنه الحسين، وأهانه، وتطاول عليه ابنُه عبدالله، ولطَمَه،

وأشعل النار في قلبه. ويا لها من صفعة جرحت الفؤاد، وأدمت المُقَل! وشتان ما بين زعيمٍ يُكرم، ويعفو، ويجبُرُ عَثَرات الكرام، وآخر يُهين، ويجرح!

وقد أكرم الملكُ عبدُالعزيزِ خالدَ بنَ لؤي، وطيَّب خاطره، وهدَّأ من غضبه، وطمأنه، وكان الحسين يرى أن هاتين البلدتين (تُربة والخُرمة) من قُرى الحجاز، بينما يرى الملك عبدالعزيز أنهما من نجد، وخصوصًا أن أكثرية سكانهما يُعلنون ولاءهم له، وكاتب الملكُ عبدُالعزيز الحسينَ بن علي، ورَغب في المسالمة والمحاورة، ولكن الحسين لم يستجب، وصار يتحدث عن العصاة وتأديبهم، ويقصد سكان تلك المناطق.

وجرَت مكاتبات بين الملك عبدالعزيز وخالد بن لؤي، وهو من الأشراف، وابن عمٍّ لهم، وفي تلك الرسائل نجدُ الملك عبدالعزيز يُهدئ، ويُطمئن، ويجنَح للسلم، ويَرغَب في المسالمة والمصالحة، وابن لؤي يعيش مرارة القسوة، وصَلفَ المعاملة، ويستنجد، ويستحث. يقول الملك عبدالعزيز في رسالة بعث بها إلى خالد بن لؤي: كُفُّوا أنفسكم، لا يَصير على الشريف وطوارفه حركاتٌ منكم قَطعيًّا، ولا تتعدوا حدودكم. ويقول خالد بن لؤي في إحدى رسائله إلى الملك عبدالعزيز: اليومَ الشريف غَنيٌّ عن

الجميع، وطامعٌ في حُكم بلاد واسعة. ويقول ابن لؤي في رسالة أخرى: اليوم يا أبا تُركي، والله لا أبحث عن فتنة، ولا أريد شرًّا يصير بين الناس، ولكن نريد منك حلًّا يُخلصنا من شر هذا الرجل بأي حالٍ يصير. وتعرف اليوم ما للعرب إلا الله، ثُم أنت، ولا مُحام عنهم إلا الله، ثُم أنت.

وتَصَبَّر الملك، وهادن الحسين، وراسلَه، وسالمه، ولكن الحسين يكيد، ويُظهر ما لا يبطن، وضايق من كان في الحجاز من التُّجار النجديين، ومنع الاتصال التجاري بين بلاده ونجد، وجعل بلاده منطلقًا لخصوم الملك عبدالعزيز، ووصل في عام من الأعوام إلى القويعية التي تبعد عن الرياض مئتي كيلومتر غربًا، وأمسك بالأمير سعد بن عبدالرحمن، وفاوض الملك عبدالعزيز، وتوصل معه إلى اتفاق، بموجبه أطلق سراح الأمير سعد.

وجرت الأحداث، ومضت الأيام، وقامت الحرب العالمية الأولى، وبينما الملك عبدالعزيز في الحياد كان الحسين بن علي يُعلن الثورة على تركيا، ويُسمي نفسه ملك العرب، بل خليفة المسلمين. وكان الملك عبدالعزيز يرغب في الوئام مع الحسين، ويتحمل الآلام التي تلحقه منه، ويراسله، ويصفه بالوالد، ويُبجِّله، ويُعظمه. يقول في إحدى رسائله: «إلى جناب الأجلِّ الأمجد الأفخم ذي الهمم العُليا، وَالدنَا المكرَّم، سليل الهاشمية

الطاهرة حضرة أمير مكة المكرمة، الشريف حُسين بن علي المحترم، وفَّق الله معاليه. آمين.

بعد مَزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام، مع السؤال عن شريف خاطِركم العاطِر، لا زلتم بكامل الصحة وأوفر السرور. وعنّا نشكر الله تعالى على نعمه نحن بخير، وأحوالنا من كرم الله جميلة. مُشرَّفُكُم[1] المكرَّم وصل، وفهمنا مضمونه، ولو أنه ما هو الواجب عليكم ذكر بعض الألفاظ التي وردت فيه، لكننا لموجب المصلحة الحاضرة للجميع نتحمل ما جاء منكم».

ويقول في هذه الرسالة: «ثُم لا بدَّ أن حضرتكم مُتشكك أن لي في أمر أهل الخُرمة سببًا، وأنِّي أنا الذي محركهم، لا، وربِّ إبراهيم ومحمد، فأنا من العام الماضي، وأنا معكم وعليهم». ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والآن -أدام الله وجودكم- أهنتُ نفسي، وأبديتُ الواجبَ الذي أرى فيه الصالح لنا ولكم خاصةً، ولرعيتنا وحُلفائنا».

ويقول كذلك: «ولا هُو خَافيكم حالُ الفتن؛ إنها تبحث خفايا دَفينة. والمشكل فيها كثير، سواءً من جهة الأعداء ومن

(١) مُشرفكم: أي رسالتكم المُشَرَّفة.

جهة الرعايا. والآن أحببت أن أعرض على حضرتكم رأيي. أما من جهتي فثقْ بالله أنه ما زال الأمر يندفع، وأنا أقدر على منعه أنَّه ما يَجيئكم مني أمرٌ يُؤذيكم. وأما من جهة أهل الخُرمة فأنا أرى أن تكتب لخالد[1] وكافة أهل الوادي، وتَذكر لهم أن هذه أمورٌ أجراها الله على غير عقد رأي، وإلا فنحن وأنتم وابن سعود يدٌ واحدةٌ على الأعداء». ويقول في آخر الرسالة: «فبموجب محبتي للائتلاف مع حضرتكم وتحرِّي السِّلم، ومضرَّة الأعداء كتبتُ هذا الكتاب، وتركتُ المراعاة لما قبلَه، ولا شكَّ أن عقلكم وسياستكم يدلُّكم على الصلاح، ودرة الائتلاف -إن شاء الله- كما هي سجيتكم هذا ما لزم تعريفه».

إن هذه الرسالة لوحةٌ مضيئةٌ تُجسِّد عظمة الراحل وحلمه، فهو يُعظِّم الحسين، ويوقره، ويُلقِّبه بالوالد، ويتحمل الألفاظ القاسية والكلمات النابية، ويُقسم له بالله إنه يرغب المسالمة والمصالحة، ويوضح له عواقب الفتن، ويتعهد له بألا يأتيه من قِبَله إلا الخير والحب، ولكن الحسين خلاف ذلك؛ فله أهدافٌ أخرى، فها هو يكاتب الملك عبدالعزيز، ويرسل إليه صُرَّتَين، في باطنهما ألفٌ وخمس مئة جنيه ذهبًا، ثم يرسل بعد

(١) يقصد خالد بن لؤي الشريف.

أقل من ثلاثة أشهر صُرَّةً ثالثة بداخلها ألف جنيه. وساورت الملك عبدالعزيز الظنون، وشكَّ في موقف الحسين، وماذا يريد؟

واستشار والدَه الإمام عبدالرحمن وبعض مستشاريه، وأخبرهم بصرر الذهب التي وردت من الحسين، وقال: سأكتب إليه لأستجلي الأمر. وأرسل الملك عبدالعزيز رسالةً رغب فيها بحثَ الحدود، وقال: قد يكون بيننا وبينكم سوء تفاهم في الماضي، فلا بُدَّ إذًا من التفاهم والتأمينات، وذلك بأن تُحدَّد الحدود بيننا وبينكم، فتزول الشكوك، وتتضاعف من أهل نجد المساعدات. إن البطل عبدالعزيز لا يُشترى بالمال، ولا يُخدع بحلو الكلام، فكيف سيكون جواب الحسين؟

وجاءت إجابة الحسين على الرسالة بكلمات نابية، وفهم الملك عبدالعزيز من الجواب أن الحسين أصبح يزعُم أنه مَلك العرب، وأن نجدًا من بلاده، وأن الملك عبدالعزيز من رعاياه. لقد «قَطعَت جَهيزة قَول كل خطيب»، كما ورد في الأمثال، وانجلى الأمر، وعرف البطل الهدف من الذهب، والغرض من الرسائل. وتحمَّل السياسي المُحنَّك، والعظيم البطل، وهادَن، وسالَم، وانتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م. وبعد انتهاء الحرب شعر الحسين بالعظمة والتعالي، وزاد كبرياؤه.

وكتب ابنه عبدُالله إلى الملك عبدالعزيز يخبره برحيل الأتراك من المدينة المنورة ووقوعها تحت سيطرته، وقال في رسالته للملك: «... ثم أخبرك بأن الله فتح لنا أبواب مدينة خير البريَّة، وأن حاميتها قد أُسرت، واستولينا على جميع ما فيها من السلاح الثقيل والخفيف، وجميع الأملاك والآلات والأدوات العائدة إلى الحكومة الغابرة».

ويقول: «ولا يخفى على مداركم أنه لم يبقَ -والحالة هذه- شاغلٌ ما يشغل حُكومة صاحب الجلالة -أدامه الله وأيَّده- عن الالتفات لإصلاح داخليتها وشؤونها، والتنكيل بمن يسعى للإفساد والتخريب من العشائر التابعة لها». وأجابه الملك عبدالعزيز مُهنئًا ومباركًا، ودعاه للتفاهم بخصوص العشائر التي يقصدها، وأكَّد له أنه لا يريد غير السِّلم والسلام.

وردَّ عليه عبدُالله برسالة في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧هـ يخبره بأنه عائد إلى مكة المكرمة بعد أسبوع. وجاء في رسالته: «إني أخوكم الصادق، ومستعدٌّ لمساعدتكم بما تأمرون، ولا يجوز أن تُفرِّق بينكم وبين والدي أمور البادية التي لا أهمية لها.. وكيف يمكن أن يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تُربة والخُرمة والبادية؟! ها أنذا متوجهٌ إلى مكة، فأرجوكم أن

ترسلوا أحد رجالكم، وإن ارتأيتم أن يكون أحد أنجالكم فذلك أولى، وأنا كفيل بالنجاح وحسم الخلاف، والاتفاق مع سيدي الوالد».

وكان للملك عبدالعزيز عيونه، فقد جاءه من يخبره أنَّ عبدالله بن الحسين يتأهب للزحف على تُربة، وأنه يُظهر ما لا يبطن. وتأمل الملك الأمر، فهل يدع الحسين يتطاول، ويستمر في غيِّه أو يوقفه، ويردُّه؟ وفضَّل الملكُ عبدالعزيز الحوار والنقاش.

يقول الزركلي: «ليس في تاريخ عبدالعزيز حادثٌ واحدٌ يدل على أنه ابتدأ إنسانًا بشَرّ أو عداء، قاتل كثيرًا وفي غريزته كُره القتال، وعادى كثيرًا وفي فطرته حُب المصافاة، وفتك بكثيرين، وأمقَتُ ما يمقُته سفكُ الدم. حروبه مع آل رشيد لرد عدوانهم عن عرشه وعرش أسلافه، وحروبه مع الترك لاحتلالهم بعض بلاده، وموالاتهم آل رشيد عليه وحروبه مع إمارات شبه الجزيرة وقبائلها لأسباب لم يكن هو البادئ بها. كذلك خصومته للشريف حسين بن علي، قبل أن يثور على الترك وبعد الثورة، لم يكن عبدالعزيز من جُناتها».

ويمر الوقت والملك عبدالعزيز يحاول تهدئة الأمور، ولكن الحسين خلاف ذلك، وأيقن الملك عبدالعزيز أن الحسين

صار يرى أنه مَلك العرب، وسيِّد المنطقة، وجزم أن الحسين بات ينظر إليه على أنه من رعاياه، ولهذا شرع يستعد للمنازلة والمجابهة، فليس الحسين بملك العرب ولا سيدهم، وليست له سلطةٌ ولا سيادة على الملك عبدالعزيز، واحتاط الداهية، وأعدَّ العُدَّة للرد والصد، وكوَّن قُوة لنجدة تُربة والخُرمة، وجهَّز جيشًا لمساعدة أبناء تلك المنطقة، وكأني به يردد قول الشاعر الجاهلي الحُصين بن الحُمام:

وَلَمّا رَأَيْتُ الْوُدَّ لَيْسَ بِنافِعي

عَمَدْتُ إِلَى الأَمْرِ الَّذي كانَ أَحْزَما

فَلَسْتُ بِمُبْتاعِ الحَياةِ بِذِلَّةٍ

وَلا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ المَوْتِ سُلَّما

وظلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرقب الأمر، ويحاول تهدئة الوضع، ويُرسل الرسائل تلو الرسائل إلى عبدالله بن الحسين، وتَردُ الأخبار أن الجيش يزحف إلى تربة والخرمة، وأنه مرَّ بعشيرةَ، واجتاز جبل حضن، ونزل في مكان يُسمى البُديع. وتعاظم الخطر، واشتدت اللهجة، وزأر الملك عبدالعزيز، وأرسل كتابًا مُطولًا لعبدالله بن الحسين يقول فيه: «قد تحقق عندي خلاف ما أخبرتني به

سابقًا؛ أي إنك عائدٌ إلى مكة المكرمة، والظاهر أنك مُهاجم تربة والخرمة، وذلك مُخالف لما أبديتموه للعالم الإسلامي عمومًا، والعربي خصوصًا، واعلَم -رعاك الله-أن أهل نجد لا يخذلون إخوانهم، وأن الحياة في سبيل الدفاع عنهم ليستْ بشيء. نَعم، وإن عاقبة البَغي وخيمة. خيرٌ لك إذًا أن تعود إلى عُشيرة، وأنا أرسل إليك أحد أبنائي أو إخوتي للمفاوضة، فتتم الأمور على ما يرغبُ به الفريقان إن شاء الله».

لقد كان الملك عبدالعزيز بطلًا في السلم، بطلًا في الحرب، سيطر على مشاعره، وتحمل الأذى، وتجنَّب الخطر، واستمر في تهدئة الأمور، ولكن قضاء الله صائر، وحُكمه غالب، ولهذا جاء الرد القاسي من عبدالله بن الحسين يقول فيه: «تأمرني بالرجوع إلى ديرتي من أرضٍ هي لأبي وجدِّي؟! ومتى كنتَ تمنع الناس عن ديرتهم؟!» ويقول أيضًا: «أخبرتك بأني متوجه إلى الوطن لتأديب العصاة، فجاءتني كتُبك ملؤها المودة، فما حملك الآن على تغيير لهجتك؟ أمن أجل أننا نؤدب رعايانا، ونُصلح ما فسد في قبائلنا؟!».

وبعد هذا التعالي والإعلان الحربي أرسل الملك عبدالعزيز طليعةً من أتباعه رجال البادية (الإخوان) لنجدة

أبناء تلك المنطقة. وسار هو بعد ذلك بجيش كبير قُدِّر عدده بعشرة آلاف مقاتل أو أكثر بقليل. وعرف الملك عبدالعزيز أنَّ عبدالله بن الحسين احتلَّ تربة بجيش قوامه سبعة آلاف مقاتل، وأعمل السيف في رجالها، واستباحوا البلدة، ونهبوها، وأن عبدالله بن الحسين أمر بقتل بعض المشايخ واثنين من التجار النجديين، وصادروا أموالهم. وكتب عبدالله بن الحسين من مخيمه إلى رؤساء البادية في تلك النواحي يهددهم بالويل، وأنه سوف يفعل بهم مثل ما فعل بتربة إن لم يأتوه طائعين صاغرين. يقول في إحدى رسائله: «ما خَفِي عليكم ما حلَّ بتربة من ذبح الرجال وتدمير المال».

وارتاع الناس، وذُعر القوم، وحوقل السكان، واستغاثوا بالله، ثم بالملك البطل، وهتفوا باسم الله، ثم باسم عبدالعزيز. ونقل الأثير أنّةَ الجرحى، وحمل الطَّيف استغاثة الضعفاء، وجاءت كتائب البطل تترى، وأسرعت جيوش الظافر تتسابق، وأرسل الملك عبدالعزيز مندوبًا مرةً أخرى إلى عبدالله بن الحسين بعد احتلاله تربة يرجوه تسوية الأمر، ويطلب منه تهدئة الحال، وينشده السلم، ويتمنى عدم سفك الدم، ولكن عبدالله لم يستجب، وردَّ نجاب الملك عبدالعزيز برسالة شفوية فيها

تهديدٌ وتخويفٌ، وويلٌ ووعيدٌ، واستهزاءٌ وسخريةٌ، قال النجاب لخالد بن لؤي أمير تربة، والكتائب التي جاءت له منجدة: «إن عبدالله بن الحسين فعلَ، وعملَ»، وإنه يقول: «أخبر الخوارج -يقصد رجال البادية الإخوان-ومن التف حولهم أننا ما جئنا تربة من أجل تربة والخرم، سنصوم في الخرمة -إن شاء الله- وسنعيِّد عيد الأضحى في الأحساء. إنها الحرب والقتال، إنها النار والعداء، وليس إلا السيف، ولم يعد سوى الموت».

وثارت حماسة الرجال، وقد وصل هتاف المستغيثين، وعرفوا سخرية عبدالله بن الحسين، وما فعلَ، وما ينوي، وما يريد، وصاح الرجال: الويلُ لك أيها الظالم، الموتُ لك أيها الجائر، ماذا فعل العُزَّل؟ وماذا فعل الضعفاء؟ لماذا تقتل العلماء؟ لماذا تسفك دم التجار النجديين؟ ما ذنبهم؟ يا ويلكم! أزفت الساعة، حان حينكم، ودنا أجلكم. ورددوا النخوة: إياك نعبد، وإياك نستعين، هبَّت هبوب الجنة، وأين أنت يا باغيها؟

وعلا هتاف الرجال، وارتفع تكبيرالأبطال: لبيك يا تربة، لبيكم أيها الصبيان، ها نحن جئنا، ها نحن قدِمنا، موعد الجناة قريب، أليس الصبح بقريب؟! ومشت جموعهم، وزحفت كتائبهم، وكان سيرهم بعد صلاة المغرب من اليوم

الرابع والعشرين من شعبان سنة ١٣٣٧هـ -١٩١٩/٥/٢٤م. وكان عددهم ألفًا وخمس مئة مقاتل. وانفلت رجلٌ من البادية يصيح: النذيرَ النذيرَ يا عبدالله بن الحسين؛ جاءكم رجال الملك عبدالعزيز، وهَزئ ابن الحسين من الرجل النذير، وسخر من الناصح الأمين، وأمر بقطع عنقه، جبروتٌ وقسوةٌ، وتعالٍ وتعاظمٌ... وركن إلى جيشه، وأوى إلى قوته، وحسِب أنه الشجاع، وظنَّ أنه الغالب. ولكن كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله! وجاء رجال الملك عبدالعزيز بقلوب صامدة، ونفوس باسلة، وعقول ثابتة، هدفهم دحر الغازي، وقصدهم ردع الباغي، ونشيدهم: إياك نعبد، وإياك نستعين. ونام الأمير عبدالله تلك الليلة مُطمئنًا، أخلد إلى فراشه، وأوى إلى خبائه، وهو قرير العين، هادئ البال، وظنَّ أن حصنه منيع، وبأسه شديد؛ فلديه أسلحة وذخائر، وعنده مُعدات غنمها من الأتراك، وحسبها ترُدُّ المنية، وظنَّها تحفظه من البلية، وبعد منتصف الليل هجمت الأسود الضواري، وزأرت الليوث العوادي. وذُعر الجيش الحسيني، وارتبك الجند، وصار يضرب بعضهم بعضًا، ويبطش بعضهم ببعض، واختلط الحابل بالنابل، وأضاءت السيوف الليل، وصهلت الخيل، وتلاطمت الرجال. وكأن بشار بن بُرد يقصد ذلك اليوم بقوله:

كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنا
وَأَسْيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كَواكِبُه

وكان ليلٌ طويلٌ، وموتٌ زؤام، ودمٌ ونار، وجرت الأودية بالدماء، ومزَّقت أنات الجرحى وصليل السيوف، وصراخ المذعورين، وعويل الفزعين، سكون الليل وهدوءه. هولٌ أطمَّ بهم، وظلامٌ أربكهم، وفزعٌ أذهلهم، وشجاعةٌ حيرتهم، وأسودٌ مزَّقتهم.

وصاح الصائح: النجاةَ النجاةَ، الفرارَ الفرارَ، الهزيمةَ الهزيمةَ.

وفرَّ عبدالله بن الحسين، ومعه بضعةٌ من الرجال، وغنمَ رجال الملك عبدالعزيز المعدات والآلات، وكسبوا الذخائر والمؤن التي جاء بها عبدالله بن الحسين من المدينة. غنائم كسبها الحسين شهورًا، وخسرها دهرًا، استولى عليها من الأتراك، وبقيت لديه أربعة أشهر، وغرَّته، وكانت العاقبة على الظالمين، والفوز للصابرين. ووصل الملك عبدالعزيز إلى ميدان المعركة بعد أيام من وقوعها، وبكَى عندما شاهد القتلى، وحزن عندما رأى الموتى.

كم كُنتَ عظيمًا أيها الراحل! حتى الأعداء تحزن لفقدهم، وتبكي لمُصابهم، ولكنك تعلم أنهم جُندٌ أُجبِروا، وضعفاء أُرغموا. إنك رحالٌ متنقل، تعيد توحيد الوطن، وتجمع شمل الأمة. وأحسب أن الشاعر أبا فراس الحمداني يعنيك بقوله:

قَدْ ضَجَّ جَيْشُكَ مِنْ طُولِ القِتالِ بِهِ
وَقَدْ شَكَتْكَ إِلَينا الْخَيْلُ وَالإِبِلُ

في كُلِّ يَومٍ تَزُورُ الثَّغْرَ لا ضَجَرٌ
يُثْنِيكَ عَنْه وَلا شُغْلٌ وَلا مَلَلُ

فَالنَّفْسُ جاهِدَةٌ وَالْعَيْنُ ساهِدَةٌ
وَالْجَيْشُ مُنْهَمِكٌ وَالمالُ مُبْتَذَلُ

وبقي الملك عبدالعزيز في تربة نحو عشرة أيام، يدير شؤونها، ويرعى أمورها، وصاح بعض الرجال: إلى الطائف. رخِّص لنا يا عبدالعزيز، اسمح لنا يا طويل العمر.

وقال الملك لهم: كفَى الباغي جزاءً بَغيه، لا تتقدموا، لا تندفعوا.

وبدأ نجم الحسين بن علي في الأفول؛ فقد هُزِم هزيمة مُنكرة، وخسر خسائر عظيمة، وكُسِرت شوكته، وذلَّت إرادته، وخابت آماله، وتراجعت طموحاته، ولكنه ازدادت عداوته، وعظمت كراهيته، وصار يكيد، ويدبر، ويخطط، ويفكر. وعاد الملك عبدالعزيز إلى الرياض بعد أن نصره الله، وأعزَّ جنده، وصامت الخرمة وتربة في كنف الملك الظافر، وعيَّدت تلك الأقاليم في ظل الملك العادل، وكانت هذه المعركة سببًا في معركة أخرى، وكانت هذه الموقعة بدايةً للقاء ثانٍ مع الحسين بن علي، فقد أنجبت لقاءً مسلحًا بدأ بالطائف، وانتهى برحيل الحسين وأبنائه من مكة المكرمة، ودخول الملك عبدالعزيز الديار المقدسة، وتشرفه بخدمة البقاع الطاهرة.

إنها مواجهة في تُربة، أعقبتها مصادمة في الطائف، حيث ظلَّ الحسين بن علي بعد هذه المعركة كما كان قبلها يكيد، ويُدبر، ويمد الثائرين، ويناصر الجانحين، وقضى الله ولادةً حربيةً، أنجبت الأمن والأمان والخير والسلام لأفضل البقاع وأحبِّ الأماكن إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وحين رجع الظافر إلى الرياض استمر في توحيد مُلك آبائه وأجداده.

حقًّا ما أصبركَ يا عبدالعزيز! وما أعظمك يا مُوحِّد الوطن! وما أحلمَك يا بانيَ المجد!

☚ وفي الفصل القادم عرضٌ للمعارك الجبلية، وكيف وحَّد الملك البطل أقاليمها، وكيف وقف الحسين بن علي يساعد أولئك القوم على الملك عبدالعزيز.

العبيكان للاستثمار
Obeikan
Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan
Publishing

مـن إصـداراتنـا

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ الثَّامِنُ

المعاركُ الجبليةُ

... ووصل آل عائض إلى الرياض، وقالـوا للملـك البطـل: يـا عبدالعزيـز، عادَيْنَـا النـاس، ونخشـى إذا أمّرتنـا أن يقوموا علينا، ولكننا نكـون مُعاونين لمن تُؤمِّرون، أيّدكم الله، ولا تقصِّروا علينا من جهة الدنيا.

حديـثٌ مباشـرٌ، وحـوارٌ بـين الملـك وآل عائض حـين جـيء بهـم إلى الرياض في المـرة الأولى، وأكرمهـم مُقيـل العـثرات، ورجل المكارم، وأمرهـم بالطاعـة والالتـزام بالشـروط التي تقيَّد بها أجدادهـم لأجداده، وتجاهـل ذنوبهـم، وتناسـى هفواتهـم.

تلـك الجبـال الشـاهقة، وتلـك الربـوع السـاحرة، وذاك الإقليم الجبلي الناعم الهواء الخشن الطبيعة، الغنيُّ بأشـجاره، السـاحرُ باخضـراره، كانـت لـه علاقـة بالرياض وارتبـاط بـآل سعود. ولقد حنَّ ساكنو ذاك الإقليم، وصوَّت قاطنو تلك الديار، يريدون العودة إلى السيادة السعودية، وينشدون القيادة المتألقة في الرياض، إنهم يسمعون الأخبار التي يتناقلها الرواة عن عدالة الملك عبدالعزيز، ويعرفون قوته التي يتحدث بها الركبان. إنها

سلسلةٌ من الجبال المنيعة، وخيوطٌ من المنحدرات والمرتفعات، تمتد من الحجاز إلى اليمن.

إن ذلك الإقليم تسكنه قبائل متعددة عاشت سنوات من الخوف، وأمضت فترات من تقلبات الزمان، وتعاقُب الولاة، وتناحُر الرجال. خوفٌ وقلقٌ، ورعبٌ وفزعٌ، البنادق على الأكتاف محمولة، والخناجر في الأوساط مربوطة، هزَّة الأشجار تخيف، وانحدار الأحجار يرعب، وحركة الحيوان تفزع. إنهم ينشدون الأمان، ويطلبون السلم والسلام، إنهم أحزاب متباينة، وقبائل متفرقة، قد ملّوا الحرب، وسئموا الفتن، ولقد اجتمعت عليهم عَوادي الزمن المرعبة، فقرٌ وخوفٌ، وجهلٌ وعداءٌ، وثأرٌ وقتلٌ.

وتطلع القوم إلى المُنقذ البطل، ورَنَت أبصارهم إلى الملك العادل، واشرأبت أعناقهم للرياض وأسَدها، وجاءتهم الأخبار تتسابق عن هزيمة عبدالله بن الحسين في تربة، وكيف أمَّن الملك عبدالعزيز ذلك الإقليم؟ وكيف هدَّأ تلك المنطقة؟ ووصلت إليهم الروايات عن الساحل الشرقي، وسيطرة الملك عبدالعزيز عليه، ورحيل الأتراك عنه، وعلموا بأفُول نجم آل رشيد، وتقهقرهم، وتراجُع سلطانهم، وأيقنوا أن الأمل بالله، ثُم بالملك عبدالعزيز، وجزموا بأنه الفارس القادم.

ورَنا الملك الظافر إلى تلك الديار، وعقَد العزم على توحيدها، وصمَّم على إرجاعها، وشرع يضع الخطة، ويفكر في الوقت. إنه يعلم أن ذلك الإقليم كان جزءًا من مُلك آبائه وأجداده، ولا بُدَّ من استرداده. لقد كانت تلك المنطقة جزءًا من الدولة السعودية الأولى، وذلك أن الأمير محمد بن عامر المعروف بـ (أبونقطة) قد تأثَّر بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وزار الدرعية عام ١٢١٥هـ مع أخيه عبدالوهاب، وأسند إليهما الإمام عبدالعزيز بن محمد مهمة نشر الدعوة في عسير، وحين وصل الأخوان إلى عسير، وشرعا يدعوان وقف في وجهيهما الأمير محمد بن أحمد من آل يزيد.

واستنجد المذكوران بالدرعية، فأرسلت إليهما جيشًا استطاعا به أن ينتصرا على خصومهما، وأن يقتلا ذلك الأمير، وأصبح محمد بن عامر أميرًا على تلك المنطقة منذ ذلك الوقت، سنة ١٢١٦هـ. وصار من ولاة آل سعود، وأخذ يحارب خصوم الدعوة السعودية، سواءً أكانوا في تهامة أم في الحجاز، واتخذ بلدة (طبب) مركزًا لحكمه، ودارت الأيام، وظلَّت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب تنمو، وصار أنصارها يتزايدون، وظلَّ أبناء المنطقة هناك يدينون بالولاء والطاعة لآل سعود في ظل أطوارهم المتعاقبة.

فذلك الأمير عائض بن مرعي -الذي امتد حكمه إلى ما يقارب أربعةً وعشرين عامًا-يُعدُّ حُكمه امتدادًا لحكم آل سعود في إقليم عسير؛ وحين ينتصر سنة ١٢٦٩هـ على الجيوش المصرية يُرسل إلى الإمام فيصل بن تركي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جَد الملك عبدالعزيز رسالةً يبشره فيها بالنصر، ويبعث بهدية، ومعها قصيدةٌ لقاضيهم علي بن الحسين الحفظي يقول فيها:

وَنادِ بِأَعْلَى الصَّوتِ بُشْرَى لِفَيْصَلٍ

وَمِنْ نَسْلِ سادَاتِ المُلُوكِ مُسَدَّدُ

ويصلُ الوفد إلى الرياض ومعه الهدية والقصيدة، ويرحب بهم الإمام، ويفرح لانتصارهم، ويبادر شعراء الإمام بالرد على القصيدة، ويتم اختيار قصيدة الشاعر ابن مشرف لإرسالها مع هدية الإمام فيصل للأمير عائض بن مرعي، وبعد وفاة الأمير عائض بن مرعي عام ١٢٧٣هـ، خلفه ابنه محمد، الذي كان قويًّا مرهوب الجانب، حتى إنه بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، واختلاف أبنائه من بعده، توجه الأمير سعود بن فيصل إلى عسير، يطلب من الأمير محمد بن عائض النجدة على أخيه عبدالله، ولكنه لم يُنجده، ولم يدخل في الخلافات التي نشأت بين أبناء الأمير فيصل بن تركي.

وصار الرجل في عسير يُوسع إمارته، حتى أطاعه أهل المنطقة، إلا أن تركيا أخذت تحسب له ألفَ حساب، وصممت على السيطرة على ذلك الإقليم، وتوالت قوّاتها، وتكبدت خسائر فادحة، وأخيرًا تمكن رجالها من السيطرة على الإقليم، وقتلوا الأمير محمد بن عائض، وخضعت عسير للأتراك، وأصبحت تحت ولايتهم، وذلك عام ١٢٨٩هـ، إلا أن الوضع الأمني لم يستقر؛ فقد ساد الخوف، وكثُرت الانتفاضات، وأصبح كل إنسان يخاف على نفسه وأهله وأملاكه، وبقي لآل عائض نفوذٌ ومكانةٌ؛ فقد حافظ الولاة الأتراك على نفوذ آل عائض، وظلوا يستعينون بهم.

إلا أن المنطقة ظلَّت تنتفض على الأتراك بين الفينة والأخرى، وصار النزاع على أشُدِّه، فطورًا ينتصر هؤلاء، وطورًا أولئك، ثم قامت الحرب العالمية الأولى، وانتهت بهزيمة تركيا مع المنهزمين، واضطر الأتراك إلى الانسحاب من منطقة عسير عام ١٣٣٧هـ، ووصلت الأوامر إلى الوالي التركي بمغادرة عسير وتسليم أمرها وذخيرتها إلى آل عائض، وقبل رحيل الوالي التركي محيي الدين باشا جمع آل عائض، وأخبرهم بوصول الأوامر إليه بالانسحاب من عسير، وتسليم الأمر إليهم

مع مخلَّفات الدولة جميعها من معدات ومنشآت، وقال لهم: «أريد قبل الذهاب أن أنصح لكم؛ فإن بلادكم واقعة بين نيران عدة، وكُلٌّ يريد التهامها، فالإدريسي في الغرب، وهو صاحب نفوذ وصَوْلَة، وأكبر أمله أن يضمَّ إليه عسيرًا، وفي الشمال الحسين بن علي في مكة، ورغبته لا تقل عن رغبة الإدريسي، وفي الشرق آل سعود، وأملهم في التوسع كبير، وفي الجنوب إمام اليمن. وأقدِّم لكم بعض الحلول، وأعرض عليكم آراءً لتأخذوا بأحسنها؛ حتى تستطيعوا البقاء، وتضمنوا لبلادكم القوة والاستقلال. قالوا: وما الرأي؟

قال: الرأي الأول: أن تتفقوا مع الإنجليز؛ فإنهم أصحاب النفوذ الحالي والسيطرة الحقيقية، وتمتد أيديهم إلى الكثير من المناطق، وليس هذا الكلام محبةً لهؤلاء الإنجليز عليهم لعنة الله؛ فهم أعدائي، وسبب القضاء على دولتي، ولكنه الواقع. ورفض آل عائض هذا الرأي، وأبدوا أنهم لن يتعاونوا مع الأجنبي».

قال الوالي التركي: «إليكم رأيًا آخر: الاتفاق مع الملك عبدالعزيز آل سعود؛ فإن مُلكه سيمتد، ونفوذه سيتسع، وقوته كثيرة، ومعنوية الشعب عنده كبيرة، وله محبة عندهم ورهبة».

وتداول آل عائض الرأي، وقالوا: بلاد نَجد بعيدة. ولم يوافقوا على ذلك.

قال لهم مُحيي الدين باشا: «إذًا إليكم الرأي الثالث، ولا لكم سواه. قالوا: وما هو؟

قال: الاستقلال، وحصِّنوا بلادكم، ولا تخرجوا لغيرها، ولديكم أسلحةٌ ومعداتٌ»، ورأى آل عائض هذا الرأي، واتفقوا عليه، وانتهى اجتماعهم مع الوالي التركي. ورحل الأتراك، وتولى حسن بن علي بن محمد بن عائض مقاليد الأمور، وكان قاسيًا وخشنًا، وحصلت بينه وبين رعاياه خلافات، ونفَرَت بعض القبائل، وأرسلت وفودها شاكيةً إلى الملك عبدالعزيز؛ فذلك الإقليم كان خاضعًا للسيادة السعودية الأولى، وكان يدين بالولاء لآل سعود في أطوارهم المتعاقبة، ويعلمون أن الملك عبدالعزيز يرقب تلك المنطقة، ويتطلع لإعادتها وبسط نفوذه عليها، ويعرفون مدى تنامي سلطات الملك عبدالعزيز.

ولهذا رحَّب الملك بالوفد القادم، وأرسل إلى الأمير حسن وفدًا من ستة علماء من نجد لإصلاح ذات البين، ونصح لهم بالمسالمة، والرجوع إلى ما كان عليه أجدادهم، ووصل الوفد، ورفض الأمير حسن الوساطة، وردَّ الوفد ردًّا قبيحًا. وكان

الجواب: أن أرسَل مِشْطًا من الرصاص إلى الملك عبدالعزيز إشارةً إلى الحرب، وقال: «إذا كان ابن سعود يتدخل في شؤون قبائل عسير فسنمشي إلى بيشة، ونستولي عليها». وعرف الملك عبدالعزيز حقيقة الأمر ونُفرة هذا الأمير وجنوحه، وأنه لن يعترف بالسيادة السعودية؛ ولهذا قرر إخضاعه بالقوة، وجهَّز الجيش، وأمره بالرحيل، وأسند القيادة إلى الأمير عبدالعزيز بن مساعد.

وفي شهر شعبان من عام ١٣٣٨هـ، مايو ١٩٢٠م تحركت القوة السعودية بثلاثة آلاف مقاتل، بعضهم من الحاضرة، وأكثرهم من البادية، وسار المقاتلون إلى عسير، وحين وصلوا انضمَّ إليهم من أهلها بعض الموالين للحكم السعودي، وكان الملك عبدالعزيز قد أمر قائد الجيش بأن يدعو ابن عائض للسلم أولًا، وأن يكون كما كان أجداده مع السعوديين الأوائل.

يقول أحد المعمرين المشاركين في تلك الحملة: إن عبدالعزيز كان يوصينا بقوله: لا تتعرضوا لقتل كبار السن الذين لا يحاربون، ولا تتعرضوا للنساء وصغار السن، ولا تدفنوا آبار المسلمين، ولا تحرقوا النخيل أو المزارع أو البيوت، ومن استجاركم أجيروه، وأما من قاتلكم فقاتلوه، وأخذ الأمير

عبدالعزيز بن مساعد بتنفيذ ما وجَّه إليه الملك العادل، وشَرَع يُوجِّه الرسائل إليه.

إلا أن ابن عائض أسرع بجنوده إلى المكان الذي نزل فيه الجيش السعودي، وتصادم الفريقان في حجلا، الواقعة بين أبها وخميس مشيط، وكانت الوقعة شديدةً، وهُزِم حسن بن عائض، وعاد إلى أبها، وتتبعهم المقاتلون السعوديون، وحين اقترب الأمير عبدالعزيز بن مساعد من أبها فرَّ ابن عائض، ولجأ إلى قصره في جبل حَرْملة، ودخل الجيش السعودي أبها دون مقاومةٍ تُذكر، ثم واصل عملياته العسكرية، حتى استكمل توحيد بلدان المنطقة، وحين رأى حسن بن عائض أنه لا قِبَل له بالمقاومة استسلم مع كبار أفراد أسرته للأمير عبدالعزيز بن مساعد، واتفقوا على أن يذهبوا إلى الرياض لمقابلة الملك عبدالعزيز والاعتذار، ووصلوا إلى الرياض، وقابلهم الملك البطل، وأكرم وفادَتَهم، واتفق معهم على أن يكونوا معه كما كان أجدادهم مع أجداده.

وفي المجلس الملكي بالرياض قال الملك عبدالعزيز: يا آل عائض، ما تخلينا عنكم أبدًا، فعندما سأل الأتراك الشريف عبدالله بن عون أن يهاجمكم، ويُنكل بكم أرسل الشريف

يستنجد عَمِّي الإمام عبدالله، فأجابه: ابنُ عائض رجلٌ منا، فكيف نُساعدك عليه؟!

وعرض عليهم إمارة عسير، وقال لهم: سوف أترك إمارة عسير لكم بالشروط التي تقيَّد بها أجدادكم، وهي الولاء والطاعة للرياض.

قالوا: يا عبدالعزيز، إننا نعتذر.

وسألهم الملك عن السبب؟

فقالوا: لقد عادينا الناس، ونخشى إذا أمَّرتنا أن يقوموا علينا، ولكننا نكون مُعاونين لمن تُؤمِّرون، أيدكم الله. وسألوا الملك العطاء والإكرام، وقد استجاب الملك لمطالبهم، ومنحهم الهبات الجزيلة، وخصص لهم مرتبات شهرية لائقة بهم، ثم أذِن لهم بالعودة إلى عسير، وعادوا إلى عسير، وأقام محمد بن عبدالرحمن بن عائض في أبها، في حين أقام ابن عمه حسن بن علي بن عائض مع عائلته في قصره بحرملة.

وعَيَّن الملكُ عبدُالعزيز شُويشَ بنَ ضويحي أميرًا في أبها من قِبله، وذلك عام ١٣٣٨هـ، ولكن حسن بن عائض كان ينوي الشر، ويَدس الدسائس، ولم يحفظ الجميل الذي وجده من

الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولهذا شرع يكتب إلى الملك الرسائل تلو الرسائل يشكو أمراءه في أبها الواحدَ بعد الآخر، وكان الملك قد استجاب في بادئ الأمر لمطالبه، فعَيَّن بعد أحد عشر شهرًا أميرًا آخر خلفًا لشويش، هو عبدالله بن سويلم، ثم بعد تسعة أشهر عيَّن بدلًا منه فهد العُقَيلي، وتوالت الرسائل تشكو، وتتهم أولئك الأمراء، وفي تلك الأثناء كان الحسين بن علي في مكة يرقب التطورات، ويسوءُه انتصارات الملك عبدالعزيز، وصار يعمل على مساعدة خصومه. ولهذا بذل جهودًا مُكثفةً لإثارة فئات من قبائل عسير على الحكم السعودي، حيث أغضبه عودة ذلك الإقليم إلى السيادة السعودية.

واتصل بالأمير حسن بن عائض، وحرَّضه على التمرد والعصيان، وأمدَّه بالمال والعتاد، والتقت الرغبات، واتفقت المصالح بين الحسين بن علي وحسن بن عائض، فوثب ابن عائض على أمير أبها، وحاصر الأمير السعودي وحاميته في أبها، فاضطر الأمير السعودي إلى الرحيل والخروج من أبها مع أفراد الحامية، ولما وصل إلى خميس مشيط حاول مقاومة ابن عائض، ولكنه فشل في محاولته؛ فالحامية محدودة العدد، ووصلت الأخبار إلى الملك عبدالعزيز في الرياض، فقرر الملك تأديب أولئك الثائرين المنكرين للجميل.

وندب للمهمة شبلًا من أشباله، هو فيصل بن عبدالعزيز، في جيشٍ قوامه ستة آلاف مقاتل، أغلبهم من البادية، وانطلق الجيش بقيادة الأمير فيصل، وذلك في شوال سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، ولما اقترب الجيش السعودي من عسير التحق بهم نحو أربعة آلاف مقاتل من رجال تلك المنطقة، وزحف الجيش السعودي إلى خميس مشيط، حيثُ كان محمد بن عائض مرابطًا فيها، وحين عرف ابن عائض بهذا الزحف فرَّ، وانسحب إلى حَجلا، ولحقت به خيالة الجيش السعودي، فتراجع إلى أبها، وتقدم الأمير فيصل إلى أبها، وحين وصلَها غادرها آل عائض وأنصارهم، ودخلها الجيش السعودي دون قتال، وتوجه حسن بن عائض مع أنصاره لحصنهم المنيع في جبل حَرملة، وكان حصنًا صعب المُرتقى لا يُوصل إليه إلا من منافذ معلومة لا يعرفها غير أهلها.

وفرَّ محمد بن عائض إلى القنفذة، ومنها سار إلى الحجاز يستنجد الحسين بن علي، فأنجده بحملة صغيرة يقودها عبدالله بن حمزة الفعر، ومعها مئتان من الجنود النظامية وبعض المدافع والرشاشات بقيادة الملازم حمدي بك. وبسط الأمير فيصل بن عبدالعزيز الأمن والأمان، وسيَّر الركبان بأن الأمر والسلطان في المنطقة كلها للملك عبدالعزيز، وعرف أن

آل عائض قسمان: فقسم مُختبئ متحصن، وآخر شارد هارب يطلب النجدة، وينشد المعونة.

وقرر الأمير فيصل إنهاء الأمر وحسم التمرد، فأرسل إلى حسن بن عائض المتحصن السرية تلو الأخرى، وعزم على تدمير الحصن وإخلائه، ولهذا أرسل كتائب صلبة هاجمت الحصن هجومًا شرسًا، ودام القتال ستَّ ساعات تكبَّد الطرفان فيها خسائر كبيرة، وعرف آل عائض ضعفهم، وأدركوا حَرَجهم؛ ولهذا تسلل حسن بن عائض مع أفراد أسرته وبعض أنصاره إلى خارج الحصن، ونزل من الجبل عن طريقٍ لم يعرفه المهاجمون.

وحين اقتحم المقاتلون السعوديون المعقل وجدوه قد فرَّ، فهدموا ذلك القصر وكلَّ قصور آل عائض الموجودة في الجبل المذكور؛ كي لا يرجعوا إليها مرةً أخرى، وعفا الأمير فيصل عن المستسلمين، وأمَّنَهم، وعرف بحملة الحسين بن علي التي جاءت مع محمد بن عائض، فأرسل سريةً تُناوشها، وتنسحب، وتستدرجها إلى عقبات عسير، وتقاربت القوات، وتلاقت على بضع مراحل من أبها، ودارت رحَى المعركة، وانتصر المهاجمون السعوديون، وأنزلوا بأعدائهم خسائر فادحة. وفرَّ آل عائض.

وبعد هذه الانتصارات وهزيمة الجيش الحجازي، وفرار آل عائض، وسيطرة السعوديين على الإقليم عيَّن الأميرُ فيصلٌ سعدَ بن عفيصان أميرًا لأبها، وأبقى عنده حاميةً مُكونةً من خمس مئة رجل، ثم عاد إلى الرياض في ٢١ من جمادى الأولى سنة ١٣٤١هـ، أوائل ١٩٢٣م. وبعد عودة الأمير فيصل وإحكام السيطرة السعودية على المنطقة قام آل عائض بمحاولة أخرى بمساعدة من الحسين بن علي، فقد رتَّبوا مع أنصارهم في منطقة عسير، وجاؤوا على عَجَل، وحاصروا الأمير السعودي ابن عفيصان في أبها. وكادت أبها تسقط في أيديهم لولا وصول النجدات السعودية، واستمر السجال بين الفريقين، وتُوُفي الأمير السعودي ابن عفيصان، وحلَّ محله في الإمارة عبدالعزيز بن إبراهيم الذي امتاز بالدهاء والحزم، وتمكن من القضاء على آل عائض، حيث فاوضهم، واسترضاهم، وأرسلهم إلى الرياض ومعهم الأميران حسن ومحمد آل عائض.

ولقد عفا الملك عبدالعزيز عنهم، وأبقاهم في الرياض معزَّزين مُكرمين. إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بطلٌ في مواقفه؛ فللمرة الثانية يعفو، ويتجاوز. وهذه أخلاقه، العفو والتسامح، فهو الحاكم بشرع الله، المُتبع قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما زادَ اللهُ عبدًا

بعفوٍ إلا عِزًّا»[1]. وهذه هي أخلاق الملوك، وتلك هي سجايا العُظماء. يقول المهلب بن أبي صفرة: «خير مَناقب الملوك العفو». ولقد انتهى اضطراب ذلك الإقليم، وهدأت أموره، وثبتَ الحكم السعودي هناك، وساد الأمن، وعمَّ الخير، وأصبح جزءًا ومنطقةً من مناطق المملكة العربية السعودية.

يقول سليمان شفيق كمالي باشا، الوالي التركي في عسير إبّان سيطرة الأتراك عليها، وذلك في مذكرات نُشِرت له: «... إن عسير مفتاحٌ وثيقٌ للحرمين الشريفين... وقد انتبه إلى هذا السر الدقيق ابن سعود سلطان نجد، فقبلَ أن يتعرض لأمر الحجاز حرص على أن تكون عسير في يده، فتمكن من بسط سلطانه على جبالها وتهائمها، وفي استطاعته اليوم أن يجرد منها مئة ألف مقاتل مدرَّبين على استعمال السلاح، ومجرَّبين في الحروب ومقتضياتها، ومرتاضين على مشاق الأسفار.

ولهذه الحكمة الدقيقة مدَّ الشريف حسين، ملك الحجاز السابق عينيه إلى عسير منذ عام ١٩٠٨م، مُتذرعًا بالاستعانة بنفوذ الدولة العثمانية، وجعل لنفسه علاقة بها. ولما جلت عنها الجنود العثمانية عقب الحرب العظمى بحكم شروط الهدنة

(١) أخرجه مسلم (رقم٢٥٨٨).

بادر هو إلى وضع يده عليها بصفته ملك الحجاز، غير أن السلطان ابن سعود كان مستيقظًا لمراميه، فاستعمل السطوة والحكمة معًا في التفوق عليه، حتى صارت أبها عاصمة عسير وكل ما جاورها، وتبعها من بلاد عسير منضوية تحت لوائه، وأخيرًا وصل حكمه إلى سيف البحر في القنفذة. وهذا الفوز العظيم الذي حصل عليه السلطان ابن سعود في مثل لمح البصر من السرعة لا يجوز أن يُحمل على قوة السيف وحدها، فإن من يظن ذلك يدل على سذاجة متناهية وضعف في التفكير وبُعد عن إدراك الحقائق.

إن من طبيعة البشر عامةً وسكان جزيرة العرب خاصةً أن يقيموا وزنًا عظيمًا لمن كان صادقًا في قوله، موثوقًا بعمله، والناس لا يُذعنون للضرب والبطش فقط، بل ينقادون أكثر من ذلك لما فيه حفظ مصالحهم البشرية المشروعة، ولما يرجون أن يُحيوا به حقوقهم الضائعة».

لقد أجاد هذا الوالي التركي الوصف للملك العادل الذي حفظ الحقوق، ونشر الأمن، وحكم بالشريعة الإسلامية الطاهرة، فجزاه الله عن كل أفعاله خيرَ الجزاء وأوفاه، وأمطر عليه شآبيب رحمته.

☚ وبعـد أن أحكـم البطـلُ السـيطرة علـى هـذا الإقليم التفت إلى مهمة أخرى، سنتناولها في الفصل القادم (الشمال الجامح).

العبيكان للاستثمار
Obeikan
Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan
Publishing

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ التَّاسِعُ

الشَّمال الجامِح

حائلٌ ذاك الحصان الجامح!

... يقول الإمام عبدالرحمن الفيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الحكومة البريطانية إما أنها تستطيع مساعدتنا، لكنها لا تريد، أو أنها تُريد مساعدتنا، لكنها لا تستطيع. وفي كلتا الحالتين يجب أن نكون مُهيَّئين لمساعدة أنفسنا».

ووافقه على هذا الرأي الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المفتي الأعلى في ذلك الوقت، الذي تُوفي سنة ١٣٣٩هـ، وكان هذا منهج الملك عبدالعزيز طيَّب الله ثراه؛ فالاعتماد على النفس أساس انطلاقته، والاتكال على الله عقيدته وسلاحه، ولكنه فَطنٌ ينشد المعونة، وعبقريٌّ يطلب الدعم، ويخشى سطوة الدول العظمى، ولهذا عمل على الحياد، والبُعد ببلاده عن الأخطار.

وكان آل رشيد يجدون الدعم من الأتراك، فالسلاح يصل باستمرار، والمال يفدُ بين الحين والآخر، والرجالُ من الأتراك يحاربون في صفوفهم، وانتهت الحرب العالمية الأولى،

وانقطع الدعم التركي لآل رشيد، ورأى الملك عبدالعزيز أنه لا بُدَّ من إنهاء إمارة آل رشيد في حائل، فقد عرف عن التواصل الذي صار بين مكة وحائل، ثم الدعم الذي بات في شرق الأردن والعراق، حيث ابنا الحسين بن علي هناك، وتوالت مكائد الحسين بن علي، وتتابعت رسائله إلى الخصوم المناوئين للملك عبدالعزيز، سواءً في حائل أو عسير أو أي مكان آخر. إن هزيمته في تربة، وانكسار شوكته، وتحطيم قواته، واستيلاء الملك عبدالعزيز على المُعدات التي كسبها من الأتراك في المدينة المنورة ألهبت عداوته، وأشعلت النار في قلبه.

وصار الحسين يُكاتب هذا وذاك، ويقول في إحدى رسائله لابن رشيد: «عدوُّك عدوُّنا يا بُني، بل عدو العرب والإسلام، وهذا السلاح منا للحرب، وهذا المال. أما الرجال فعندك شمَّر، وفيها الأشبال».

سبحانك يا رب! حنانَيك يا مَلك الملوك! يا معزَّ من تشاء، ويا مذلَّ من تشاء. كيف يكون عبدالعزيز عدوًّا للعرب وعدوًّا للإسلام، وهو الحاكمُ بشرع الله، الوقّافُ عند حدود الله، الطالبُ للسلم، الخاطبُ للأمن، الكارهُ للحرب، المرسلُ الوفودَ؟!

ألم يقل ابن رشيد: «عشرة آلاف بندقية وصلتني من تركيا سوف أكسرها على رأسك يا عبدالعزيز»، حين كتب إليه في أثناء الحرب العالمية الأولى، وطلب الاجتماع به لأجل السِّلم والخير؟! ألم يقل عبدالله بن الحسين بن علي: سوف نصوم في الخُرمة، ونُعيِّد عيد الأضحى في الأحساء؟!

إن إرادة الله غالبة، وحكمه نافذ، والعاقبة للمتقين، وتوالت انتصارات الملك الظافر، وعادت الأقاليم النافرة، ورجعت المناطق الممزَّقة، وعظُمَت السلطة، وأصبحت كلمة البطل مسموعةً وقوته مرهوبة، وحائلٌ جزء من مُلك الأهل والأجداد، وآل رشيد أمراء من قِبَل آل سعود؛ فهُم الذين أمَّروهم، وهم الذين مجّدوهم، ولكنها الدنيا تدور، والدهر قُلَّبٌ!

وصمم الملك على حسم الأمر، وإرجاع ذلك الإقليم الجامح، وتأديب أولئك العصاة، وعزم على إنهاء إمارة حائل؛ فالوقت قد حان، والأسباب قد تكاملت، وأدركت قبائل شمَّر مع الأيام أن المستقبل للملك عبدالعزيز، ولهذا انقسمت إلى فئتين: ففئةٌ منهم أعلنت ولاءها للملك، وتحولت عن بداوتها، وسكنت في الهجر التي أقامها البطل الظافر، وفئةٌ أخرى بقيت تُكابر، وظلت تُعاند، وتسير مع آل رشيد حيثما ساروا، وتأتمر بأوامر

أسرةٍ أفلت نجومها، وغابت غيومها، وانخسفت أقمارها، وحان حينها.

فقد دبَّ الخلاف، وساد الخصام بين آل رشيد في حائل، وتعاقبوا على الإمارة، وأراقوا الدم فيما بينهم، واختلفت كلمتهم، وتعددت آراؤهم، وتوالت زعاماتهم، واستمرت الهدنة بينهم وبين الملك عبدالعزيز بعد معركة جُراب سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، حيث انشغل الملك عبدالعزيز بتثبيت أقدامه في الساحل الشرقي، ثم بالمواجهة مع الحسين بن علي في تربة سنة ١٣٣٧هـ، ثم باسترجاع منطقة عسير بعد ذلك، وكانت هدنة غير مقصودة؛ فآل رشيد يتنازعون فيما بينهم، ويتناحرون، ويقتل بعضهم بعضًا، والملك البطل يبني، ويُؤسس، ويُوحد، ويلملم، ويستميل القبائل، ويقوي الروابط، ويُفاوض، ويُسالم، ويُكرم الوافد، ويعفو عن الجانح.

وبدأ الزحف السعودي في شوال عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، عندما أرسل الملك عبدالعزيز ابنه سعود على رأس قوة كبيرة للإغارة على فئات من قبيلة شمَّر التي كانت تناصر ابن رشيد، ونجحت تلك القوة في إغارتها، وأدَّت رسالتها، وعادت، وكان الملك يريد بذلك إنهاك الخصوم وإرباك الأعداء، وإظهار

القوة، ثم انشغل الملك بحوادث أخرى صرفته عن مواصلة الهجوم؛ فقد حدث صدام بين فئات من رجال البادية مع أمير الكويت، وبادر بتسوية ذلك النزاع، ثم عادت المياه إلى مجاريها في تلك المنطقة الحدودية مع الكويت.

وحين فرغ من تلك المهمة دفع بعض قواته إلى مهاجمة البادية المناصرة لآل رشيد، ونفَّذت تلك القوة مهماتها، ثم عادت. كرٌّ وفرٌّ، وهجوم بعد هجوم، واشتباكٌ إثر اشتباك، وإرباكٌ للخصم، إنها حرب استنزاف، وإغارات إرهاب. ثم استنفر الملك عبدالعزيز أتباعه، ومشى بهم من الرياض، وتوجه إلى القصيم، واجتمع لديه في بريدة جمعٌ من المقاتلين قُدِّر بعشرة آلاف، وقسَّم الجيش إلى قسمين:

الأول بقيادة ابنه الأمير سعود، ومهمته مهاجمة القبائل المؤيدة لابن رشيد شمال جبل شمَّر وشرقه.

والقسم الثاني بقيادة أخيه محمد بن عبدالرحمن، وأمره أن يهاجم أطراف حائل. أما هو فبقي في القصيم يرقب الأمر، ويتابع الأحوال.

ووصلت القوة الزاحفة، وساد الذعر والخوف ذاك الإقليم، ولما قارب الأمير محمد أطراف المدينة قام

أهلها يستأذنونه، ويرجونه إرسال وفد من قِبَلهم إلى الملك عبدالعزيز في بريدة، فأذن لهم بذلك، ووصل الوفد، وقابل الملك عبدالعزيز، وعرض على الملك موافقتهم على شرطٍ كان الملك عبدالعزيز قد فاوضهم عليه في سنة مضت، وأَبَوا، وحين اشتد الخطر، وأدركوا قُرب النهاية جاؤوا يطلبون ذلك الشرط، ويعلنون الموافقة. وكانت المفاوضة السابقة بين الملك عبدالعزيز وآل رشيد أن تكون الشؤون الخارجية لجبل شمَّر في يد الملك عبدالعزيز، والشؤون الداخلية في يد ابن رشيد، إلا أن الملك عبدالعزيز رفض هذه المرة عرضهم، وطلب أن يعود إقليمهم إلى سابق عهده مع آبائه وأجداده، وأن يشمله التوحيد والانضواء تحت رايته، وأن تنتهي إمارة آل رشيد.

وأجاب الوفدُ بقوله: يا عبدالعزيز، سنعود، ونعرض الأمر على صاحب الشأن، فإذا قبل كان خيرًا، وإلا فأنت بريء الذمة. وعاد الوفد، وعرض مطالب الملك عبدالعزيز، ورُفِضت الشروط والمطالب، واحتكموا إلى السيف، وكان الأمير سعود قد نجح في مهمته، وأرعب القبائل التي هاجمها، ثم توجه نحو حائل للمشاركة في الحصار. واجتمعت القوات السعودية في الحصار، وطوَّقت المدينة، واستدعى الملك أخاه محمد، ووحَّد القيادة في

يد ابنه سعود، وطال الحصار، وحدثت مناوشات ومصادمات، وصارت يومًا لهؤلاء ويومًا لأولئك.

وفي أثناء الحصار قدِم أميرٌ من أمراء آل رشيد من الجوف كان قد رحل إليها في وقتٍ مضى، هو الأمير محمد بن طلال، وحين جاء الغائب خاف منه الأمير القائم عبدالله بن متعب بن رشيد، وخرج من حائل، وسلَّم نفسه للأمير سعود بن عبدالعزيز الذي أخذه إلى الرياض، حيث الملك عبدالعزيز. واستغل الأمير الرشيدي الجديد الموقف ورحيل الأمير سعود بن عبدالعزيز، فتولَّى الإمارة، وصار يشن الإغارة على القوات السعودية، وعلى القبائل التي أيَّدت الحكم السعودي في تلك الجهات، وعَرَف الملك بظهور الأمير الجديد، ولملمته الأمر، وهجومه المتواصل، فهبَّ إليه من الرياض في الثالث عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ/ ١٩٢١م.

وكان الملك قد سيَّر قبل مسيره فيصل الدويش، وأمره أن يتوجه بقوةٍ من رجال البادية إلى جبل شمَّر، ويبدأ بمحاصرتهم حتى يصل هو إليه، ومشى الدويش ومعه ألفان من المقاتلين، ونزل في موقع قريب من حائل يُسمى ياطِب، وبعد أربعة أيام من وصوله عرف أن ابن طلال خرج من حائل لقتاله، فهبَّ الدويش

مسرعًا إلى موقع آخر، اسمه الجثامية، أما أمير حائل فإنه توجه إلى موقع حصين اسمه النّيصيَّة، وكتب إلى الدويش يدعوه إلى تحكيم كتاب الله، وهو بذلك يريد طمأنة الدويش وخديعته؛ ليباغته.

وقال ابن طلال في كتابه: إننا جميعًا مسلمون، وبيننا كتاب الله وسنة رسوله. وصدَّق الدويش القولَ، وانخدع بالرسالة، وردَّ بأنه يُلبي الدعوة للتحكيم، ويسأله أن يرسل وفده لهذه الغاية، واسترخى الدويش، وصار ينتظر الوفد. إنها البساطة، والسذاجة، والغفلة، والتسرع.

وغفل عن الجانب الشمالي من معسكره، وأهمل تلك الناحية، فابن رشيد يطلب المفاوضة. وكان لابن رشيد عيونه، وعرف تلك الثغرة، وأرسل قلةً من جنوده في الليل، فاحتلوا ذلك المكان، وأشرفوا على معسكر الدويش، وشرعوا عند انبلاج الفجر يهجمون، وارتبك الدويش، واضطربت أحواله.

كيف حدث هذا الهجوم؟! إنها خُدعة، إنها خيانة، وجاءته الأخبار: قُتل عشرة من رجاله، جُرح عشرون، وصاح الرجال، وتلاقى الفرسان، والتحم المقاتلون، وأرسل الدويش يخبر الملك عبدالعزيز أن المعركة على أشُدِّها، وغضب الملك

البطل، رجل الحروب، وسيِّد المواقف، وأمر ابنه سعودًا في الحال أن يركب الخيل، ويسرع لنجدة الدويش، وتسابق الفرسان، وتسارع الرجال، ثم جاء رسولٌ آخر من الدويش، يطمئن الملك أنهم تمكنوا من صد الهجوم، وفتكوا بأغلب المهاجمين، وأصدر الملك أمره للدويش أن يلزم مكانه، ولا يتحرك، ولا يقوم بأية حركة أخرى إلى أن يصل إليه.

وانطلق الملك عبدالعزيز يتقدم جيشه الزاحف الذي قُدِّر بعشرة آلاف مقاتل، وتوجه إلى مركز الدويش في الجثامية، وحين وصل اجتمع بقادة أتباعه للتشاور في خطة الهجوم على ابن طلال في النِّيصية المُحصَّنة بتلال جعلت منها متاريس وحصونًا طبيعية، ولم يعلم ابن طلال بوصول الملك وقواته الرئيسة إلى هذا الموقع، وتقرر أن ينقسم الجيش إلى فرق: فرقة تلف حول ابن طلال من جهة حائل؛ ليقطعوا عليه خط الرجعة، وقسم آخر يتقدم للمكان المعدّ للهجوم، وأن يبدأ الهجوم عند انبلاج الفجر بعد إطلاق نيران المدافع من القوة الرئيسة التي مع الملك عبدالعزيز نفسه، وأن تطلق نيران البنادق دفعة واحدة من كل صوب، وأن يكون الهجوم من جميع الجهات.

ودنت ساعة الصفر، وتأهب الرجال، واستعد المقاتلون، وكبَّر الملك، وقال: باسم الله، إياك نعبد، وإياك نستعين، ثم

انطلقت الرصاصة الأولى، واهتز المكان، ومزَّق الصوت السكون، وسارت الخطة بدقة وإحكام. وارتبك ابن رشيد ورجاله؛ فالنار من كل جهة، والموت من كل ناحية. من أين جاء هؤلاء المهاجمون؟! وكيف وصل هؤلاء المقاتلون؟! اشتد الهول، وعظم الخطب، وعرف ابن رشيد ورجاله أن الموقف ميؤوس منه؛ فقد قُتل على الفور عددٌ كبيرٌ، واعتصم آخرون، واستسلمت جماعات، وفر بعضٌ آخر، وكان ابن طلال في مقدمة الهاربين.

قال أحد المستسلمين يخاطب الملك عبدالعزيز: رُماتكم ماهرون يا مولانا.

قال البطل: لا. لا. كنا نضرب على النِّيَّة في الظلام، ولكنه توفيقٌ من الله.

كم أنت عظيمٌ أيها الراحل! كم أنت مؤمنٌ أيها البطل! لسانك رطبٌ بذكر الله، فكل نصرٍ من الله، وكلُّ توفيقٍ من الله، وكل فتحٍ من الله. رحمك الله، وأجزل لك الأجر عن كل شبرٍ وحَّدته، وعن كل مدينة أعدتَها. ودخل ابن طلال حائل، وأغلقت المدينة أبوابها، وتحصَّن رجاله في قلاعها وأسوارها المحيطة بها، وظلَّ يدير الأمور من قصر برزان، ويتهدد، ويتوعد.

وأرسل الملك عبدالعزيز إلى أهالي حائل يقول: سلِّموا تسلموا. فجاء الجواب بالموافقة والتسليم، ولكن بشرط أن يؤمِّر الملك عبدالعزيز عليهم ابن طلال، ولعل هذا الرد جاء بإيحاء من ابن طلال نفسه؛ فليس في تلك الساعات العصيبة زعيمٌ آخر يُوحد كلمتهم، ورفض الملك الطلب، وزحف بقواته، واقترب من المدينة، وضيَّق الخناق، وطوقها من جميع الجهات.

وظلَّ الملك يُشدد الحصار، ويُشرف بنفسه على القتال، وجاعت المدينة، وضاقت بهم الأرض، واستبسل أهلها في الدفاع، ولكن أنَّى لهم ذلك؟! وكثر الوسطاء بين الملك عبدالعزيز وأهل حائل، وعبدالعزيز يأبى إلا أن تزول إمارة آل رشيد، وحاول ابن طلال أن يقنع بريطانيا بالتوسط بينه وبين الملك عبدالعزيز، فلم تنجح محاولته، وطال الوقت، وكتب الملك إلى أهالي حائل إنذاره الأخير، وقال: قد طال الحصار، وأقبل الشتاء، فليعذرنا الأهالي إذا أنذرناهم، لهم ثلاثة أيام ليسلِّموا المدينة وعائلة الرشيد، وإلا فنحن إلى غرضنا مسرعون بالرصاص والنار، وأذعن القوم للتهديد، وخافوا من الهجمة السعودية، ولقيت دعوة الملك القبول.

فقام بعض كبارهم بقيادة إبراهيم السبهان بالاتصال بالملك البطل، واتفقوا معه على أن يُسلموا له الحصون والقلاع

ليدخل المدينة، ويستولي على مقاليد الأمور، وأن يمنح جميع سكانها الأمان، وتمَّ الاتفاق، وفتحت المدينة الحصون الخارجية المشرفة على حائل، ودخل المقاتلون السعوديون، وأمَّن الملك المنتصر الناس على أرواحهم وأموالهم، فخرجوا إليه أفواجًا يشكرون الله، ويحمدونه على السلامة، وحفظ الدماء والأعراض والأموال، وعلم ابن طلال بما حدث، وأُسقط في يده، وبعث إليه الملك الكريم، جابر العثرات، مندوبًا يعرض عليه الأمان لنفسه ولمن معه إن هو استسلم. وطلب ابن طلال أن يأتي إليه أحد أفراد الأسرة السعودية ليستسلم له، وأجاب الملك طلبه، وقدَّر حالته النفسية، فأرسل إليه الأمير عبدالعزيز بن مساعد مع ثُلة من الفرسان.

واستسلم الأمير ابن طلال، وجاء إلى الملك، وكان ذلك في التاسع والعشرين من شهر صفر عام ١٣٤٠هـ، ١٩٢١/١٠/٣١م، وانتهت بذلك إمارة آل رشيد، وعاد الحصان الجامح، وانضوى إقليم جبل شمَّر تحت راية الملك عبدالعزيز مع بقية الأقاليم:. ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦].

عاشت حائل أيامًا من الخوف وليالي من الحصار زادت على الخمسين ليلة، واضطرب أهلها، وجاع سكانها،

وذعر قاطنوها، ودخلها الملك العادل والسلطان الرحيم، فعفا، وصفح، وعاملهم بالحسنى، وهبَّ يوزِّع ما لديه من أرزاق وأطعمة. نفرت حائل سنوات طويلة، ثم عادت للمجد والعز تحت الراية السعودية.

حنانيك رباه، أية معاملة كريمة وجدها المقاتَلون من المقاتِلين؟! وأي تسامح وجده المحارَبون من المحارِبين؟! إذا انتصر قوم سفكوا الدم، أما عبدالعزيز فيحفظ الدماء، ويصون الأعراض، ويحمي الأموال، وإذا سيطر غُزاة عاثوا، وبطشوا، وإذا انتصر عبدالعزيز عفا، وصفح، وأكرم.

يقول أحد المستسلمين ليلة الحصار: كنا ليلة الحصار الأخيرة على آخر رمق، نرى شبح المجاعة والموت، فأمسينا ليلة التسليم الأولى كلُّنا شباعًا، مكسوين مطمئنين، وأقام الملك عبدالعزيز في حائل بعد سيطرته عليها بعض الوقت، يُنظم شؤونها، ويرعى أحوالها، ثم استدعى بعض كبار رجالها، وشاورهم فيمن يولِّيه إمارتهم، ودار الحوار الآتي:

عبدالعزيز: من تريدون أن نؤمِّر عليكم؟

قالوا: واحدًا من آل سعود، أو من كبار رجالك؟

عبدالعزيز: لا آمنُ أن أُولي عليكم أحدًا منا؛ فالجراح لم تندمل.

قالوا: وماذا ترى؟

عبدالعزيز: أريد أن أحافظ على كرامتكم.

قالوا: وكيف؟

عبدالعزيز: هذا إبراهيم السبهان، فهو من بني عم آل رشيد ووزرائهم، وهو رجلٌ عاقلٌ، فهو أميركم، وإني واثقٌ بالله ثم به.

وعاد الملك المنتصر إلى الرياض ومعه الأمير محمد بن طلال، وبقية أفراد آل رشيد، حيث بقُوا كرامًا أعزة. إنه بتعامله الكريم وبتسامحه العظيم يزرع الحب، ويُجسد الود، ولقد جعل المودة تتنامى له في صدور رعيته، وورَّث هذه الخصال أبناءه الكرام من بعده، وأجزم لو أن المتنبي عاصره لخصَّه بقصائده، ولزاد على قوله:

هَزَمَتْ مَكارِمُه المكارِمَ كُلَّها

حَتَّى كَأَنَّ المكْرُماتِ قَبائِلُ

لَـو بـانَ بالْكَـرَمِ الجَـنينُ بَيانَـه

لَـدَرَتْ بـهِ ذَكَـرٌ أَمْ أُنْثَـى الحامِـلُ

يـا افخَـرْ فَـإِنَّ النّاسَ فِيـكَ ثَلاثَـةٌ

مُسْتَعْظِـمٌ أَو حـاسِدٌ أَو جاهِـلُ

وأُسدِل الستار، وانتهى الصراع في الشمال بعودة أموره، وإمساك لجامه، وإكرام أمرائه.

ثم هبَّ المجاهد البطل لموقفٍ آخر، ولقرارٍ أخطر، سوف نتناوله في الفصل القادم (الصبر ينفد).

للنشر
العبيكان
Obeikan
Publishing

إحدى شركات

للاستثمار
العبيكان
Obeikan
Investment Group

من إصداراتنا

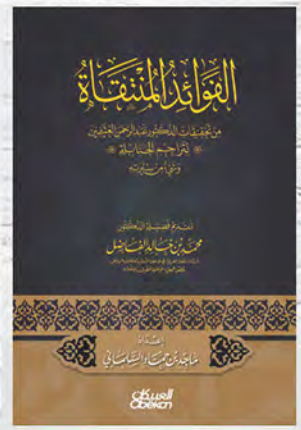

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ العَاشِرُ

الصَّبرُ يَنفَدُ!

لعلَّ اسمَه عواض أو ردّاد، المهم أنه كان تاجرًا للأغنام، وكانت له في مكة المكرمة حظوةٌ ومكانةٌ، واحترامٌ وتقديرٌ، ووجاهةٌ ومهابةٌ، إلا أنه في البادية منبوذٌ، ومكروهٌ يشمئزون لرؤيته، ويتنهدون لطلعته. كان يرهقُ رجال البادية ليَغنى سيدُه الأكبر، فقد كان يبخسهم الأسعار في مواشيهم ليتباهى عند زعيمه الحسين بن علي. كان يشتري من البدو أغنامهم بأدنى الأسعار وأبخس الأثمان، ويبيعها للحُجاج بأغلاها.

ألف رأسٍ من الأغنام اشتريناها بثلاثة آلاف، وبعناها اليوم يا مولانا، بعشرة آلاف. هذه ثلاثة آلاف لأصحاب المواشي يا مولانا، وهذا الباقي لكم، ويأخذ السيّد المبلغ، ويعطي التاجر شيئًا منه، وكان الرجل من المقربين للديوان الهاشمي؛ لا لعبقريته في تجارة الأغنام، والقسوة على الحُجّاج، وإحضار المال لسيِّده، ولكن لأنه يتفنن في رواية الأخبار السيئة، وزعم الأقاويل الباطلة، وحكاية القصص الكاذبة.

مـولاي: السَّـنة سَـنةُ جَـدب في نجـد. لقـد جفّـت الآبـار، وهلكت ألـوف الإبـل، وجـاع النـاس هنـاك.

السـيد: صحيـحٌ، سـبحان اللّه! أنـت يـا بُنـيَّ، أعلـم النـاس بأحـوال نجد.

مـولاي: ابـنُ سـعود مريض، إنه مضـروبٌ بالرئـة، ويقولون: إنه السُّلُّ، وصاحب هذا الداء لا يعيش.

السـيد: صحيـحٌ، صحيـحٌ، سـبحان اللّه! لا يَصدقنـي الخبـر غيرك.

مـولاي: لقـد خرجَـت عليـه القبائـل في الأحسـاء، وهـم يقولـون: إنهـم لا يريـدون غـير الملـك حسـين.

السـيد: هـذا الـذي أقولـه دائمًـا يـا بنـيَّ، سـتخرج عليـه القبائـل كلهـا، وكلهـا تجيئُنـا إن شـاء اللّه.

إنهـا الأحـلام والأمـاني، والآمـال والخيـال، والهُـراء والتخريـف؛ إنَّ عبدالعزيـز قائـدٌ قويُّ الشـخصية، عظيمُ الهيبة، يردُ الجانح، ويتسامح، ويعفو، ويُكرم، ويعطي. إن نجدًا أطاعت سـلطانها، وأحبتـه، وامتثلـت لأمـره، وفَدَتـه، ولكـن في الحجـاز أطاعـت الرعيـة الحسـين خوفًـا ورهبـة؟! إن الحُجـاج يدفعـون

رسومًا فوق طاقاتهم، ويتعرضون للابتزاز والسلب، وعلى المطوِّفين أن يُسلموا الحسين نصف ليرة عن كل حاج، فكيف يألفونه؟!

جاء أحد المُطوفين ذات يوم، وقال: مولاي الحسين: حُجاجي فقراء لا يبذلون.

قال الحسين: يا بُنَيَّ، الحُجاج كلهم أولادنا، والفقراء نساعدهم، لا تأخذ شيئًا منهم، ولا تطالب بشيء، كُلهم أولادنا، يجب أن نساعدهم.

واستبشر المُطوف، وعمل بأمر مولاه، وأعفى الحُجاج من الرسوم، ولكنه بعدئذ أُلزم بدفع الرسم، نصف ليرة عن كل حاج، ودَفَع المسكين المال من كيسه. إن هذا المُطوف حزينٌ، يتميز من الغيظ على هذا الظلم والتعالي، وحين يرغب الحُجاج في زيارة المدينة المنورة يدفعون خمس عشرة ليرة أجرة الجمل من مكة إلى المدينة، ويُسلمونها لعمال الحسين، حيث يدفعون للجَمّال الضعيف خمس أو ست ليرات، أما الباقي فلِمولاهم.

وزاد التعالي، وعظُم التمادي، ومنع الحسين حُجاج نجد من أداء فريضتهم، ومرت خمس سنوات وحُجاج نجد يُحجبون،

ويُردون، ويُمنعون عن أداء فريضتهم، عن الركن الخامس من أركان الإسلام، وزاد شوقهم، وعظُم حنينهم، وطال انتظارهم. إنهم الأقربون للبيت الطاهر، ويُمنَعون. إنهم المجاورون للديار المقدسة، ويُحجَبون.

وجاءت الوفود إلى الملك البطل، وألحُّوا عليه، وصاحوا: أيها الإمام، صبرنا كثيرًا يا عبدالعزيز، رخِّص لنا في الحسين بن علي، سوف نحج بالقوة، سوف ندخل مكة ونحن أعزة. أيها الإمام، بلاد نجد كلها تغلي، وقبائلها تتميز من الغيظ، وبيوتها تتململ من الحسرة. لماذا نُمنَع من البلاد الطاهرة؟! لماذا الركن الخامس من أركان الإسلام نُصَدُّ عنه؟! أيها الإمام، دع السيف يَفصل، ويحكم بيننا وبين الحسين. أيها الإمام، اسمح لنا نؤدبه، وأذن لنا نُرحله. يا عبدالعزيز، أنت والدنا، وولي أمرنا، قل: نعم. قل: توكلوا على الله.

حوارٌ مُباشرٌ، وكلامٌ لا تكلُّف فيه، ولا تعظيم، ومنهجٌ أوجَد له المحبة في قلوب شعبه، وتعاملٌ أورثه الوُدَّ في نفوس مواطنيه. وردَّ الملك العظيم على المحتشدين، وقال لهم: وصلني كل ما كتبتموه، وأحطت علمًا بكل ما شكوتموه. إن لكل شيء نهاية، فلا تيأسوا، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها.

وقال أحد الحضور: أيها الإمام، نريد الحجَّ، ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من أركان الإسلام مع قُدرتنا عليه، ليست مكة ملكًا لأحد، ولا يحق لأحدٍ أن يمنع المسلمين، أو يصدَّ المؤمنين عن أداء فريضة الحج، نُريدُ أن نحج يا عبدالعزيز، فإذا منعنا الحسين دخلنا مكة بالقوة، وإذا كنتم -أيها الإمام- تَرون أنَّ من المصلحة تأجيل الحج هذا العام فلا بُدَّ من التحرك إلى الحجاز لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين المانعين الحُجاج من البيت الكريم.

وقال الملك: إن مسألة الحج من المسائل التي يرجع الفصل فيها إلى علمائنا، وها هُم حاضرون، فليتكلموا.

وتكلم الشيخ سعد بن عتيق، وقال: إن الحج من أركان الإسلام، وأهالي نجد -والحمد لله- يستطيعون أن يؤدوا هذا الركن على الوجه الأتم بالرضا أو بالقوة، ولكن من أصول الشريعة النظر إلى المصالح والمفاسد، فالأمر الذي قد يؤدي إلى ضرر أو مفسدة يُؤجَّل. فهل هناك من مفسدة أو مضرَّة قد تنتج عن السماح لأهالي نجد بالذهاب إلى بيت الله الحرام؟ ذلك ما نريد أن نقف عليه من الواقفين على السياسة.

وأجاب البطل: الآن غير الأمس، كُنا في الماضي نؤجِّل، ونرى أن المصلحة الصبر والانتظار، أما اليوم فأقول: نحن لا

نود أن نحارب من يسالمنا، ولا نمتنع عن موالاة من يُوالينا، لقد بذلت كل ما في وُسعي لحل المشكلات التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن، وكنتُ كلما دنوت من الحسين تباعد، وكلما لنت له تجافى، إي ورب الكعبة، لستُ أرى في تطور الأمر ما يُنعش الأمل، بل أرى الأمور تزداد شدةً وارتباكًا، ولا يحسُنُ الاستمرار في خُطة لا تعزِّز حقوقنا ومصالحنا.

وسكت البطل، وهتف الجميع: توكلنا على الله، إلى الحجاز، إلى الحجاز.

وتقرر الزحف، وأخذ البطل يضع الخطوات التنفيذية للعمليات العسكرية، ولا غرو أن يقرر الملك عبدالعزيز استرداد الحجاز، فتلك البقاع الطاهرة كانت جُزءًا من كيان الدولة السعودية الأولى، يقول ابن بشر في أحداث سنة ١٢٢٥هـ:

«وفيها حج سعود بن عبدالعزيز، الحجة السابعة، واحتفلت معه بالحج رعيته... ولقد حَججت في تلك السنة، وشهدتُ سعود وهو راكب مطيته مُحرمًا بالحج، ونحن مُجتمعون في نَمرة لصلاة الظهر، وخطب فوق ظهرها خطبة بليغة، ووعظ الناس فيها، وعلمهم المناسك، وذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله، وما أعطى الله في ضمنها

من الاجتماع بعد التفرق وأمان السبيل، وكثرة الأموال، وانقياد عُصاة الرجال.

وإن أضعف ضعيف يأخذ حقه كاملًا من أكبر كبير من مشايخ البوادي، وأعظم عظيم من رؤساء البلدان...».

ويقول ابن بشر كذلك: «ورأيت الشريف غالب أقبل فوق حصانه، ونحن جلوس في الصف، وليس معه إلا رجل واحد، ونزل سعود من كور[1] مطيته، وسلم عليه، وتعانقا... وأهدى غالب إلى سعود هدايا سنيّة[2] وأعطاه عطايا جزيلة، وهو لسعود كأنه أحد أمرائه الذين في نجد».

وقبل أن يبدأ الملك عبدالعزيز العمليات العسكرية، أرسل فئات من رجال البادية إلى الحدود مع العراق، وفئات أخرى إلى الحدود مع شرق الأردن؛ استعدادًا لصد أية حركة قد تصدر عن البلدين، حيث يحكمهما فيصل وعبدالله ابنا الملك حسين. وهاجمت تلك القوات، وناوش أولئك الرجال، وأرعبوا، وخوَّفوا. أما المواجهة الأولى والصدام التمهيدي مع الحسين فقد ندب له الملك رجال البادية، وأسند القيادة إلى خالد بن لُؤي وسلطان بن بجاد، الرجلين اللذين قادا معركة تُربة التي أنجبت هذا اللقاء.

(١) كُور مطيته: رَحل مطيته.

(٢) سنيّة: بالفتح؛ أي رفيعة.

وبحسب أوامر الملك تجمعت القوات السعودية الزاحفة في تُربة، ثم انطلقت صوب الطائف في سِريَّة، وبسرعة خاطفة، وسارت القوات التي قُدِّر عددها بألفي مقاتل بعد أن وصل إليهم الأمر في شهر المحرم عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، واستولى المقاتلون على عدد من المخافر، وهم في الطريق، وانضم إليهم أعداد من رجال القبائل، وخصوصًا الأشراف الحُرَّث وثقيف. وبذلك زاد عدد المهاجمين، وقارب ثلاثة آلاف مقاتل، ووصلوا إلى الحَوِيَّة، إحدى ضواحي الطائف في أوائل شهر صفر عام ١٣٤٣هـ-١٩٢٤/٩م. وعلمت القوات التابعة للحسين، فخرجوا يقابلون القادمين، ويحاولون صدَّ المهاجمين.

وتلاقت الجموع، واشتبك المقاتلون إلا أن قوات الحسين تراجعت إلى المرتفعات الواقعة غرب الحوية، ولكنها لم تصمد طويلًا؛ حيث تقهقرت إلى الطائف نفسها، واتخذوا منها ومن الجبال المحيطة بها غربًا وشمالًا مواقع جديدة يطلقون منها نيران مدافعهم، وانسحب عددٌ من رجال البادية في الجيش الحسيني، وانضموا إلى المقاتلين السعوديين، وبقوا مع المنتصر، وصاروا مع الظافر، وعَرف الملك حسين بهزيمة قواته في الطائف، فأرسل ابنه عليًّا بنجدة من القوات المكونة من خيّالة

وهجّانة، وجاءت النجدات تتسابق، ووصلت إلى الطائف في اليوم الخامس من شهر صفر.

إلا أن الأمير عليّ اشتد عليه ضغط المهاجمين، فخرج من الطائف في اليوم المقبل، وعسكر في الهدا، ثم تبعه أمير الطائف، وكذلك الجنود النظاميون وعددٌ من الأهالي، وتجمعوا لدى الأمير عليٍّ في الهدا، وبخروج القوة النظامية من الطائف لم يبقَ من عقبات أمام الجيش السعودي الزاحف، ولهذا اقتحموا المدينة في اليوم السابع من شهر صفر، ودخلوها، وتمت السيطرة على مقاليد الأمور فيها، واهتزَّت المعنويات لدَى قوَّة الحسين بن علي، واختل نظامها، واضطربت قيادتها، وتناقص رجالها، وانسحب الأمير عليٌّ ومن التحق به من القوات، وتوجه إلى مكة المكرمة.

ولما وصَلَ إلى عرفات أوقفه والده غاضبًا عليه، وصاح به، وحشد كُل ما استطاع حشده من قوات نظامية ورجال بادية، وأمرهم بالعودة إلى الطائف لاستعادتها، ولكن أنَّى لهم ذلك؟! فقد سيطر عليها رجالٌ مُخلصون لإمامهم، صادقون في ولائهم. وامتثل الابن لأمير أبيه البعيد عن المعارك، الجاهل بالواقع، وعاد عليٌّ المسكين إلى الهَدا مرة أخرى، وعرف المقاتلون السعوديون

بذلك، فهبُّوا مسرعين نحوهم، وعند منتصف ليلة السادس والعشرين من شهر صفر بدأ الهجوم السعودي، واشتد القتال، وعظُم اللقاء، وتقهقر الأمير علي بجيشه، وعلم الأب بالتراجع، وصار يصيح: لا تتقهقروا، عُودوا، قاتِلوا، استبسلوا، دافعوا.

وكُلما تراجع الابن عليٌّ عاد أمام ضغط والده، وكاد يفقد حياته، إلا أن قواته لم تستطع الصمود والمجابهة، ولهذا انهزموا إلى مكة، ولاذوا بالبلد الحرام، وتركوا ما معهم من أسلحة ومُؤن وذخائر، تركوها غنائم لجيش عبدالعزيز، وانتهت المعركة بسيطرة رجال الملك عبدالعزيز على الطائف وضواحيها سيطرةً كاملةً، وأسرع عددٌ كبيرٌ من رجال القبائل الحجازية في الانضمام إلى الجيش السعودي المنتصر، وأصبح في إمكان رجال الملك عبدالعزيز الزحف إلى مكة المكرمة، ولكنهم تريثوا، وأرسلوا إلى الملك عبدالعزيز الذي لا يزال بالرياض يخبرونه بالانتصار، ويطلبون منه الإذن بمواصلة السير إلى مكة المكرمة.

أما علي بن الحسين فقد عاد مع فلول المنهزمين إلى مكة التي دبَّ الذعر والخوف في نفوس أهلها، وفرَّ كثيرٌ منهم إلى جدة، وأطلق الحسين بن علي النداءات، وبعث بالبرقيات، وهوَّل، وخوَّف، وأورد المزاعم، ونشر الأباطيل، واستنهض

همم أتباعه، وقام، وما قعد، وتلفت يمنةً ويسرةً، وأرغى، وأزبد، وطلب المعونات الخارجية، ولكن ذهبت كل محاولاته أدراج الرياح، ونَفَّذ الله حُكمه، وقضى الله أمرًا كان مفعولًا، واضطربت أحواله، وفكَّر، ودبَّر، ثم قرر أن يتخلى عن المُلك لابنه علي، بعد أن أجبره أعيان الحجاز على ذلك؛ لعل التنازل يُحقق سِلمًا، ويُبقي مُلكًا بَنَى عليه الآمال والأحلام.

ولهذا نُودي في الخامس من ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ بالأمير علي ملكًا على الحجاز، ثم بعد عشرة أيام غادر الحسين بن علي الحجاز مُبحرًا إلى العقبة، إلا أن الأمور تطورت، وأسرعت الأحداث، فقد جاء الإذن لرجال الملك عبدالعزيز بالنزول إلى مكة ومُحاصرة الخصوم، وألا يدخلوا الحرم بنية القتال، وزحفت القوات السعودية، وعندما وصلوا إلى قرية الزّيمة، وعرف علي بن الحسين بقربهم خرج بقواته إلى جدة.

وبانسحاب علي بن الحسين بقيت مكة خاليةً من سُلطة تحفظ أمنها، وبدأ أفرادٌ من البادية التي كانوا فيها ينهبون بعض البيوت التي غادرها أصحابها، ولهذا اتصل عددٌ من أهل مكة بالقيادة السعودية الزاحفة، وطلبوا منها أن تدخل مكة

بأمان، وحَثُّوها على سرعة الدخول؛ لئلا تعمَّ الفوضى، وتحرك الجيش السعودي، وأسرعوا إلى مكة المكرمة، ودخلوها في السابع عشر من ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ-١٥/١٠/١٩٢٤م، ودخلوا مُحرمين مهللين مكبرين وعليهم ملابس الإحرام، ولم يُرَق دم، ولم تُزهَق رُوح.

ومنحوا أهلها الأمان، وقرؤوا خطاب الملك عبدالعزيز الموجَّه إلى أهل الحجاز، وفيه يوضح مآخذه على الحسين بن علي، والأسباب التي دَعَته إلى المجابهة العسكرية وتأكيده لهم أنه سيعاملهم بالتي هي أحسن، وأسرع ناقل البُشرى إلى الرياض يزفُّ أخبار الدخول وسلامة الناس، وحين جاء الخبر إلى الملك عبدالعزيز عقد العزم على السفر إلى الحجاز، ودخل الملك البطل على أبيه الإمام عبدالرحمن في الرياض، فقبَّل يديه، وسأله الدعاء، واحتشدت الجموع في الرياض لوداعه، وكان مما قاله للمودعين: إني مسافرٌ إلى مكة المكرمة لا للتسلط عليها، بل لرفع المظالم عنها. إني مسافرٌ إلى مهبط الوحي؛ لبسط أحكام الشريعة، ولن يكون في مكة بعد الآن سلطانٌ لغير شرع الله وحكمه»، وانطلق الركب، وسار البطل، ولكن كيف؟ فلا طرق مُعبدة، ولا سيارات مُجهزة، ولا طائرات مُيسرة، وإنما كانت الرحلة على ظهور الإبل، سفن الصحراء آنذاك.

وكانت رحلةً محفوفةً بالأخطار؛ فهو ذاهب إلى أغلى البقاع، وأعز الديار، إلى قِبلة المسلمين، فكيف ستنتهي المواجهة؟ وهو متوجهٌ إلى البلد الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمنًا، فكيف سَتُختَم المنازلة؟ وسار البطل والإيمان يملأ جوانحه، وانطلق الفارس واليقين يحفُّ به، وقَصَد مكة، وثقته بالله تزداد.

يقول حافظ وهبة الذي كان مع الركب: «غادرنا الرياض مع الملك عبدالعزيز في ١٣ من ربيع الثاني ١٣٤٣هـ، الموافق ١١ نوفمبر ١٩٢٤م على رأس جيش من الحضر، من خيرة المحاربين، يبلغ عددهم نحو خمسة آلاف مقاتل، فقطعنا الطريق من الرياض إلى مكة في ثلاثة وعشرين يومًا، وكانت تلك الأيام من أسعد الأيام في حياتي. كُنا نقضي أوقاتنا إما في قراءة القرآن، أو دراسة البخاري ومسلم، أو سيرة ابن هشام، وكل ذلك يتم ونحن نقطع الطريق على ظهور الإبل».

إنه الإيمان والثقة بالله، إنها سيرة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، إنهم رجالٌ أخلصوا لله، فأكرمهم، وصدقوا مع الله، فوَفَّقهم إنه بطلٌ صَحَّت نيته، فأعطاه الله، وعظيمٌ غَضِب لله، فنصره الله.

وسار الركب الملكي إلى الحجاز يطوي البيدَ في سيرٍ وئيد، ويومًا بعد آخر والملك البطل تصله الرسائل من هنا وهناك. وكان همُّه الحجاز، وقلقه من الانتكاس؛ فهو مُقدمٌ على انتزاع سُلطة رجل له علاقاتٌ واتصالاتٌ. لذا تُرى كيف سيكون موقف الدول؟ هل تلزم الحياد؟ هل تتدخل، وتُساند، وتعاضد؟ ولكن من توكل على الله كفاه، ومن استعان بالله أعانه، إلا أن الحذر مطلوب، والرفق مندوب، إن مُهادنة الخصوم في بعض الحالات شجاعة، وتهدئة الجراح في بعض الأطوار بطولة.

هذا بريدٌ من البصرة يا طويل العمر، وهذا من مكة، وهذا من مصر، وهذا من الشام، ويأمر بفتح الرسائل، وتصله ذات يوم رسالةٌ، وذلك مساء ٢٣ من ربيع الثاني ١٣٤٣هـ، فيأمر بفتحها في الحال على عادته، وحين عرف مضمونها خَرَّ ساجدًا، ودعَا ربه. إنها سجدة الشكر، إنه المؤمن بالله، إنه القريب من الله.

ثم قال لمرافقيه: الحمد لله؛ لزموا الحياد، الحمد لله؛ تركونا، الحمد لله؛ ابتعدوا عن الخصومة.

إنه يخشى تطور الأحداث، وتدخُّل الدول الكبرى في النزاع. إنها رسالة من مكة تُخبره عن موقف الحكومات الأجنبية من الحرب، حيث تلقى خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد من

مُعتمدي الحكومات البريطانية والإيطالية والفرنسية والهولندية والإيرانية وقناصلها، خطاباتٍ أوردوا فيها موقف حكوماتهم، بالحياد التام في الحرب القائمة بين نجد والحجاز، وأنه لا يمكنهم التدخل بأي وجه كان في هذا الخصام، وأسرع الركبُ، ووصل قرن المنازل، واغتسل القوم، وأحرموا، واستأنفوا السير، ودخلوا مكة معتمرين في اليوم الثامن من جمادى الأولى ١٣٤٣هـ، الموافق ٥ من ديسمبر ١٩٢٤م.

واتجهوا إلى بيت الله الحرام، فطافوا حول الكعبة، ثم سعوا بين الصفا والمروة، وتهافت الناس، وأقبلوا يُرحبون بالملك عبدالعزيز، ويأملون على يديه الخيرَ والأمنَ والأمانَ.

يقول حافظ وهبة: «وصل عظمة السلطان إلى مكة، وعسكر في الشهداء؛ إحدى الضواحي، وأمضى نحو أسبوعين في الاجتماع مع أهالي مكة، وشيوخ قبائلها، فسحَرَ الجميع بتواضعه وكرمه الذي عمَّ القاصي والداني».

وكتب علي بن الحسين إلى الملك عبدالعزيز رسالةً يُبدي فيها رغبته في الصُّلح. ولكن الملك عبدالعزيز رفض، ولم يرضَ بغير تنحيته عن الحُكم، وبقي الملك عبدالعزيز في مكة شهرًا، حاولت خلاله جهات مختلفة أن تُصلح بينه وبين علي بن

الحسين، ولكن تلك الجهود لم تنجح، وتقررت المواجهة، وصار السيف سيّد الموقف.

☚ وفي الفصل القادم عرضٌ للصراع الذي صار في جدة، والنهاية التي جرَت في تلك المنطقة (العروس والمهر).

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

الفَصْلُ الحَادِي عَشَرَ

العَرُوسُ والمَهرُ

خطبَ الحسناءَ لم يُغلها المهرُ».

«... **ومن** كانت العروسُ غاليةً، وكان المهرُ صعبًا، تلكم جدةُ عروس البحر الأحمر، مكان الصدام الشرس، وميدان القتال المرّ.

قال شاهد عيان: كنّا نحاصر تلك العروس، ونخطبُ ودَّها، وفي أثناء الحصار فُتحَ باب المدينة، وخرج رجلٌ على حصانه ومعه راية بيضاء قد رفعها.

وأخبرْنا الملك البطل، فقال: تأكدوا من أنه مندوب سلام، وحاملُ رسالة. قالوا: إنه اقترب، ويُلوِّح بالراية.

قال البطل: اركبا يا فُلان، ويا فلان، ثم أمرَ جَمعًا بمُلاقاة الرجل بعد اقترابه مع الرجلين، وحذَّرهم من أن يُخدعوا، وأمرهم بالحذر، وانطلق الرجال، وقابلوا الوفد.

وقال الوافد: أوصلوني إلى الملك عبدالعزيز، واحموني من المقاتلين.

فقالوا له: ما خبرُك؟ وماذا تحمل؟

قال: أنا أحمل كتابًا من علي بن الحسين إلى الملك عبدالعزيز، أريد مقابلته.

قالوا له: سوف تقابله، هيّا إلى الملك.

ورافقوا الرجل، وهَمَّ المقاتلون السعوديون من رجال البادية برَميه والاعتداء عليه؛ حيث كان يلبس لباسًا إفرنجيًّا، ورأى أحد الحُراس تلك المناوشة، فأسرع إلى الملك يُخبره الخبر.

فقال الملك: يا فُلان، أسرع، وامنع رجال البادية عن الرجل القادم.

ووصل المندوب، ودخل مجلس الملك، فسلَّم، وقدَّم كتاب علي بن الحسين، وقرأ الملك الكتاب، ثم سرح بخياله لحظةً، وهتف بأعلى صوته: لم تبدأ الحرب بعد، الويل لك يا ابن الحسين، الويل لأعوانك، أنا أخو نورة، أنا أخو الأنور.

واتضح أن علي بن الحسين عرض في رسالته على الملك أن تكون بحرةُ خطًّا فاصلًا، فما كان منها غربًا يكون لعلي بن الحسين، وما كان منها شرقًا يتبع الملك عبدالعزيز، والتفت الملك عبدالعزيز إلى أحد رجاله، وقال: أحضروا الذهب القادم

من نجد، مزّقوا أكياس الذهب، انثروا المال القادم، أطلعوا هذا المندوب ليبلغ سيّده بما رأى.

ما اسمك يا رجل؟

قال: اسمي فؤاد[1].

قُل يا فؤاد، لمولاك: إني مانعٌ أهل نجد من الحرب، إني حاجزٌ القبائل من الهجوم.

يا ابن معشوق -وكان عليه خنجر- أحضروا أكياس الذهب، هيّا أسرعوا، وضعوها في المجلس. وجيء بالمال في تلك الأكياس، ثم قال الملك عبدالعزيز: يا المعشوق، مزِّق الأكياس، لا رحم الله الأنذال، ونُثرت الأولَى، ثم قال: عليكم بالثانية، ثم الثالثة.

وعندها قال فؤاد: مهلًا مهلًا يا سيدي، يكفي!

قال عبدالعزيز: يا درويش، يا ابن الدراويش، إني لم أحارب بعد، أهل نجد يرسلون الذهب في هذه الأكياس. ما تراه حقيقةً وذهبًا أو لا؟

قال فؤاد: صحيح.

---

(١) لعله الشيخ فؤاد الخطيب وزير خارجية علي بن الحسين آنذاك.

قال عبدالعزيز: قم، واركب، هيا أوصلوه إلى قومه.

قال الرجل: مهلًا يا سيدي، إن رجليَّ ما عادتا تحملانني.

قال عبدالعزيز: هيّا خُذوه، ودعوه يسترِح.

ثم قالوا له: اركب.

قال الرجل: لا أستطيع الركوب، سوف أقضي هذه الليلة عندكم.

قال عبدالعزيز: لا مانع، ضعوا له شراعًا، وافرشوا له، واحرسوه، وأطعموه.

ونام الرجل، ولكنه سمع في الليل حركةً وهمهمةً، وقام ينظر، ووجد الجنود قيامًا يتهجدون، هذا يصلي، وهذا يغتسل، وهذا يُناجي ربه، ويصيح.

قال الرجل: الذهب موجود، والرزُّ موجود، والصلاة قائمة! إذًا الفوز لكم، والنصر للملك عبدالعزيز.

وبعد طلوع الشمس عاد الرجل إلى جدة، وأبلغ القوم ما شاهد، وتكلم بما رأى.

إن البطل داهيةُ حربٍ، وخبيرُ نفوسٍ، وعالمُ اجتماعٍ، يعرف الإعلام وأثره. إنها البطولة والعظمة، تصرفٌ بذكاءٍ،

وتعاملٌ بحزم، وعاد الرجل يحمل رسالة أخطر وأبلغ من الرسالة التي جاء بها.

إنها جدة التي طال حصارها، ودام قرابة عام؛ وذلك أنه بعد السيطرة على الطائف ودخول مكة المكرمة، وتنظيم شؤونها، ورعاية أحوالها، وطمأنة سكانها أقام البطل في المدينة المقدسة قرابة شهر، وحاولت في أثناء تلك المدة جهاتٌ متعددةٌ أن تصلح بينه وبين الملك علي، لكنها لم تنجح، وخصوصًا بعد أن حلَّقت طائرةٌ من قِبل الملك علي فوق مكة، وألقت منشورات تُحرِّض سكانها على الثورة على الملك عبدالعزيز. وجاء في تلك المنشورات:

لقد جمعنا شعثنا، وأقبل إخوانكم إلينا من كل حدب وصوب، حتى أصبح لدينا -والحمد لله- من الرجال والعتاد ما يردُّ كيد العدو في نحره، ولقد جهزنا جندنا بكل الوسائل الفنية والمعدات الحربية، وها نحن على أهبة الرحيل إليكم، وتطهير بلادنا من المغتصب لها. ستبدأ طيارتنا بالتحليق في جوكم لتمطر العدو وابلًا من القذائف النارية، كونوا على ما نعهد فيكم من الثبات والطمأنينة والشجاعة، ولا تجعلوا للعدو سبيلًا إلى الفرار.

وقد كتب الملك البطل للريحاني الذي كان في جدة ردًّا على رسالة وصلت منه، كتب يقول:

إن علي بن الحسين دعانا للمناجزة -يُشير بذلك إلى المنشورات التي ألقتها الطائرة- وقد لبَّيناه، ولم نشأ أن نحمِّل الشريف عليّ مؤونة القدوم إلى الحرم، فزحفنا إليه، وأمرنا أن يكون قسمٌ من جندنا على كثَب[1] منه، فليبرَّ بوعده إذا كان من الصادقين.

إنه التحدي والمنازلة، إنها الحرب والمصادمة.

وأذن الملك البطل بالزحف إلى جدة يوم السبت ٧ من جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ/ ٣ من يناير عام ١٩٢٥م، ووصلت طلائع القوات السعودية إلى ضواحي جدة، وتولى البطل قيادة الجيش الزاحف، ورابطَ في الوزيرية، ثم عسكر في الرغامة على مقربة من جدة، وكانت القوات السعودية الزاحفة تزيد على ستة آلاف مقاتل، ثم زاد عددها حتى جاوز عشرة آلاف، وكان معها ما لا يقل عن عشرين مدفعًا، ومجموعة من الرشاشات، وكميات من الذخائر.

---

(١) كَثَب: قُرْب.

إلا أن هذه القوات لم تكن متكافئة مع قوات علي بن الحسين التي تشتمل على الطائرات والمصفحات والرشاشات والأسلاك الشائكة والخنادق والألغام، ومقاتلين من داخل البلاد وخارجها، وخصوصًا من شرق الأردن وفلسطين، ولكنها إرادة الله، ثم همة الرجال وعظمة القيادة.

يقول أحد المشاركين للملك البطل: لولا الله، ثم صبر الملك عبدالعزيز لما أدركنا شيئًا، لقد أنزل الله علينا السكينة، وكنا نتمنى الموت.

وصارت بين القوات المتقابلة المناوشات، وتكررت الصدامات التي تشتد أحيانًا، وتهدأ أحيانًا أخرى، ومنع البطل جنوده من اقتحام جدة؛ خوفًا على سكانها، وما فيها من الرعايا الأجانب، ووجَّه السرايا إلى شمالي جدة وجنوبيها، فسيطرت على اللَّيث والقنفذة في الجنوب، وسيطرت على رابغ وينبع النخل والعُلا في الشمال، وفتحَ الطريق بين مكة وهذه الجهات، وكانت الأخبار تردُه بأن الحسين بن علي بعد تركه الحجاز استقر في العقبة، وأخذ يوالي نشاطه العدائي للملك عبدالعزيز، ويمُدُّ ابنه عليّ في جدة بالأموال والسلاح والرجال، ولهذا أمر الملك عبدالعزيز حاكم جبل شمَّر، وما يتبعه من

أمكنة، الأمير عبدالعزيز بن مساعد أن يبعث بقواته لمهاجمة العقبة. ونفَّذ الأمير ابن مساعد الأوامر، وسارت القوات السعودية إلى العقبة، وعلم الإنجليز بذلك.

واتصلوا بالملك عبدالعزيز، وطلبوا منه أن يوقف قواته، والتزموا بإبعاد الحسين بن علي من العقبة، وقَبِل الملك ذلك، وأمر قواته الزاحفة بالتوقف، وتحدَّث ضابطٌ بريطانيٌّ مع أمير الأردن عبدالله بن الحسين بوجوب إبعاد أبيه، وامتنع الحسين، واشتدَّ، فقال له ابنه: «يا وليَّ النِّعَم، سياسةُ العُنف والشدة لا تفيد تجاه القوة». وأذعن الحسين، وامتثل للأمر، وغادر العقبة في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، وتوجه إلى قبرص.

واقترب موسم الحج، واهتم الملك عبدالعزيز بالحجِّ أكثر من اهتمامه بالحرب، فأرسل قبل ثلاثة أشهر نداءً إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يُخبرهم بأن النظام قد ساد في البلاد المقدسة، وأن الطرق آمنة، وأنه يرحِّب بالحُجاج، ويتكفل براحتهم وأمنهم، وأن الموانئ الثلاثة -رابغ، والليث، والقنفذة- تتشرف باستقبالهم، وكانت تجيء هذه الموانئ كل خمسة عشر يومًا بواخر هندية ومصرية وإيطالية

حاملة الأرزاق، ولقد استجاب المسلمون لندائه، وخصوصًا من الهند، وقرر الملك الإشراف على أمور الحج بنفسه، وترك بعض قواته تحاصر جدة، وتوجه إلى مكة في أواخر ذي القعدة للحج ومتابعة أمور الحجيج.

وتحققت آماله، فلأول مرة يتولى عبدالعزيز مسؤولية الحج، وأدَّى المسلمون حجهم بأمن وطمأنينة وسلام، وبعد انتهاء موسم الحج عاد الملك عبدالعزيز إلى جدة؛ لقيادة الجيوش المُحاصِرة، والإشراف المباشر على المجابهة، وكانت المدينة المنورة آنذاك تخضع لسيادة الحجاز، وقرر الملك عبدالعزيز السيطرة عليها، ولكنها مدينةٌ مُقدسةٌ، فكيف ستكون المواجهة؟ إنها مدينة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا بد من الرفق وعرض السلام والاستسلام.

وأرسل الملك إليها من يدعوها إلى الاستسلام، وامتنعت حاميتها، فحاصرتها السريَّة التي بعثها الملك عبدالعزيز، واشتد الحصار، وصارت مناوشات بين المُحاصِرين والحامية، وطال الحصار، وشحَّت الأطعمة، وغادر المدينةَ عددٌ كبيرٌ من أهلها، وعرف أهل المدينة أن المدن الواقعة شمالهم وغربهم سيطرت

عليها قوات الملك عبدالعزيز، وأدركوا أنه لا بُدَّ من الاستسلام والدخول في الطاعة.

ولهذا أرسلوا وفدًا منهم إلى الملك عبدالعزيز، وقدَّموا له الولاء والطاعة، وطلبوا منه إرسال أحد أبنائه ليُسلموا له، واستجاب الملك، وأرسل ابنه الأمير محمد بن عبدالعزيز، وحين وصل الأمير محمد وجد أن الحامية ترفض الاستسلام، وتأباه، فأقام محاصِرًا دون قتال؛ عملًا بأوامر والده، وضيَّق الخناق، وأبرقت الحامية إلى جدة تقول: الذي يهمُّنا الأرزاق للجند، وعدتمونا بإرسال الدراهم المتيسِّرة بالطائرة، إلى الآن لم نَرَ أثرًا لها، دبِّروا، وأرسلوا لنا الدراهم، ثم أبرقت مرةً أخرى تقول: انقضى الأمر، ولم يبقَ في اليد حيلة، الجنود ما عندهم أرزاقٌ إلا لثلاثة أيام، إذا لم تصل الطائرة غدًا الظهر سوف نفاوض على التسليم.

وجاء من جدة الجواب أنه يستحيل إرسال الطائرة؛ لعدم وجود بنزين، وضاقت الحال، وخرج وفدٌ لمفاوضة الأمير محمد بن عبدالعزيز على التسليم، واتفق الطرفان على أن يؤمِّنهم الأمير على دمائهم وأموالهم، ويُسلِّموه جميع ما للحكومة من أموال وأسلحة وغيرها، ودخل الأمير محمد بن

عبدالعزيز في ١٩ من جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م المدينة المنورة، وحلَّ الأمن بربوعها، وساد الخير أجواءها، ووزَّع على المستحقين من أهلها الأطعمة التي جاء بها من رابغ.

وتوالت الانتصارات، وكانت المناوشات حول جدة تهدأ، وتشتد؛ فالجيش الحجازي لديه القنابل الكاشفة التي تُنير المكان الذي تنفجر فيه، والأنوار الكشافة التي تكشف حركة الجنود في الليل، والأسلاك الشائكة التي صارت على شكل هلال حول جدة، ثم الخنادق المحفورة وراء الأسلاك التي تحجز المقاتلين السعوديين، والمدافعُ والمصفحاتُ والرشاشاتُ التي تهدر، وتطلقُ قذائف الموت والدمار. قوةٌ واحتياطات، ولكن اللّه غالبٌ على أمره، فحتى الطائرات خابت، وما أفلحت، وانفجرَتْ، وما خدمَتْ.

ففي أصيل اليوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة طارت الطائرة التي كان يقودها الطيار الروسي، واسمه تشاريكوف، ومعه شخصان، وحلَّقت فوق القوات السعودية، ودارت حول الجنود، وأراد الطيار إرهاب المقاتلين، وإفزاع المُحاصِرين، وصار يبحث عن خيمة البطل، ويُفتش عن مكان الصقر، وسرح الطيار، ومرَح، فلا مُضادات أرضية، ولا طائرات تصدُّه، وتُجالده.

يقول أحد المشاركين: جاء الجماعة لعبدالعزيز، وقالوا: يا عبدالعزيز، اخرج من هذا المُخيم.

قال عبدالعزيز: لأي شيء، الذي كتبه الله سيتم، لن أتعدَّى هذا المُخيَّم.

إنه الإيمان، والشجاعة، والبطولة، والتضحية.

وجاء المشايخ والأمير سعود الكبير، وقالوا: فِرَّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله.

قال عبدالعزيز: توكلتُ على الله، أنا لا أترك هذا المخيم، يثور مدفعٌ، أو لا يثور، تثور عشرة مدافع، أو ما تثور، تجيء الطائرة، أو لا تجيء، لن أتعدى هذا المخيم، ما من شيء إلا بأمر الله، والذي كتبَه الله سيتمُّ عليَّ وعلى الكبير والصغير، ولن أتطيَّر، ولا يصحُّ التطير، ولا يجوز لمسلم أن يتطيَّر، نحن راضون ومُسلِّمون، ومحاربون بعون الله.

يقول حافظ وهبة -وقد حضر حصار جدة ومعاركها-: أشهد أنَّ الملك عبدالعزيز -بالرغم من الأخطار التي كانت تُحيط به- ما كان يتزحزح من مكانه، لقد سقطت قُنبلة أمام

خيمته، على بُعد بضعة أمتار، ولكنها لم تنفجر، كما سقط غيرها على المخيم في الرغامة خلف تلالها.

إنه الإيمان والثقة بالله، واليقين والتوكل على الله، وكَفَى بالله وكيلًا، وكفَى به مُعينًا وناصرًا.

ودارت الطائرة، وزمجرت في الجو، والأسود الضواري ثابتو الجَنان، يتجهون إلى الله بقلوبهم، وينصر الله الحق، ويقضي أمرًا كان مفعولًا، وتنفجر القنبلة التي كانت لعبدالعزيز ورجاله. انفجرت القنبلة في الطائرة، وهي تعلو نحو ألفي قدم عن الأرض، فتحطمت في الجو، وهوَت محترقةً متحطمةً بمن فيها، وكبَّر الملك عبدالعزيز ورجاله تكبيرة الإيمان، تكبيرة الاطمئنان، تكبيرة الشكر، تكبيرة الثقة بالله.

وزاد الضغط السعودي، وصارت قذائفهم تصل إلى داخل مدينة جدة بعد أن كانت حولها، وكثَّف السعوديون هجومهم في الليل؛ ليُرعبوا الخصوم، ويحرموهم لذَّة النوم، وليسترهم الظلام عن قذائف المدافعين، وعظُم الخطر، وقويَ الحصار، وخاف السكان في جدة، وصاروا يغادرونها، وبات الجنود يتهربون بعد أن وعد الملك عبدالعزيز كلَّ من خرج بالعفو والأمان.

وكانت جميع المحاولات التي يبذلها الجيش الحجازي لفك الحصار تبوء بالفشل، فذات مرة، وفي ضُحى يوم من أيام الحصار انهمرت فجأة القذائف على القوات السعودية المُحاصِرة، وبعد نصف ساعة من الضرب الشديد المتواصل خرجت خمس مصفحات من بوابة الكندرة، فسارت ثلاثٌ منها تجاه نزلة بني مالك، واثنتان إلى الرويس، ثم تبِعَ المصفحات ألف مقاتل مقسمين إلى ثلاثة أقسام، ولحق بهم سريَّة من الخيالة. هجومٌ قويٌّ، ونيرانٌ تنهمر، وموتٌ لا محالة.

وهبَّ المقاتلون السعوديون؛ للدفاع والمجابهة، ودارت رحَى الحرب، وصار الصراع، ودام القتال، وعارك الأبطال السعوديون المصفحات التي ترشُّ الرصاص من رشاشاتها في كل جانب، وأبطلوا الرشاشات حتى أخذ الجنود الذين بداخل المصفحات يطلقون الرصاص من مسدساتهم، وأصيب بعضهم، وجُرح اثنان من السائقين الروس جراحًا بليغة، ثم تراجعت المصفحات، وقد تمزَّقت، وتكسَّرت جوانب بعضها.

والتحم المقاتلون، وخاضوا معركةً رهيبةً حتى الساعة الثالثة بعد الظهر؛ حيث انهزم الجيش الحجازي، وعادت المصفحات والجنود إلى داخل الأسلاك بعد أن خسرت الكثير

من القتلى. إنه الصراع الطويل، والعراك الشرس، والبطولة العجيبة من الملك البطل عبدالعزيز آل سعود، فحَول جدة حصارٌ وقتالٌ، ثم المملكة التي وحَّدَها، ولملمها. أعداؤه في كل مكان يتربصون، وتلك الأقاليم التي في الجهات الشمالية والشمالية الغربية من الحجاز تستوجب الأحوال توحيدها وإخضاعها لسلطانه، وذلك العالَم يترقب، والوفود تصل، وتحاور، وتناقش، وتتوسط، وهو يخشى تقلُّب الأحوال. إنها البطولة والعظمة، إنها المواقف الصعبة، ولكن كما قال أبوالعتاهية:

أَتَتْه الخِلافَةُ مُنْقادَةً
إِلَيْهِ تُجَرْجِرُ أَذْيالَها
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلّا لَهُ
وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلّا لَها

وأخذ الحصار يُثمر، فقد اشتد الذعر في جدة، وضربت الفوضى أطنابها في الجُند، وأصاب الحكومة الانحلال؛ فلا مال، ولا ذخيرة، ولا زاد يكفي، وخيَّمت المجاعة، وتوالى خروج الناس من جدة وهروب الجند، ونشر الملك عبدالعزيز بلاغًا عنوانه (براءة الذِّمَّة) عرض فيه الأمان على من في جدة من

ضُباط وجنود إذا هم أحبُّوا الخروج إلى مُعسكره، وعرض فوق ذلك المساعدة المالية على من أحبَّ منهم السفر إلى وطنه، وكان لهذا البلاغ ثماره؛ فقد ترك الخدمة عددٌ من الجنود الفلسطينيين، وسافروا إلى العقبة.

وفي حين توالت النكسات على الملك علي في جدة ماليًّا وسياسيًّا وعسكريًّا كان موقف الملك عبدالعزيز يزداد قوةً ومَنَعَةً؛ فالأقاليم التابعة للحجاز سلَّمت، وخضعت للسيادة السعودية، والإمدادات من نَجد توالت، وكان آخرها قُدوم قوة كبيرة من نجد بقيادة ابن الملك، الأمير فيصل بن عبدالعزيز.

وأدرك عليٌّ بن الحسين أن الأمل انتهى، وأنه لا فائدة من المقاومة، ولا بُدَّ من مفاوضة الملك عبدالعزيز حول تسليم البلاد إليه، ولهذا اتصل بالمعتمد البريطاني في جدة، وطلب منه أن يتوسط حول الصلح وشروطه، وخرج البريطاني إلى معسكر الملك عبدالعزيز، وعرض عليه الأمر والشروط، وبعد نقاش وتعديل طفيف تمَّ الاتفاق، وأمضى الاتفاقية الملك عبدالعزيز وعليٌّ بن الحسين في غُرة جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤هـ، ١٧ من ديسمبر ١٩٢٥م.

وكان أهم ما اتفق عليه الطرفان مغادرة علي بن الحسين الحجاز قبل مساء الثلاثاء ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤هـ، ويرحل بممتلكاته الشخصية فقط، ويضمن الملك عبدالعزيز سلامة الموظفين والعسكريين والأشراف والأهالي، ويمنحهم العفو العام، ويتعهد بترحيل الجنود الراغبين في الرحيل والذين قدِموا من الخارج، وسارت الأمور كما تمَّ الاتفاق عليها، فسافر الملك علي إلى العراق، ودخل الفارس مدينة جدة يوم ٧ من جمادى الآخرة، وأُسدِل الستار على ما كان يُسمى العرش الهاشمي في الحجاز، ولعلَّ الملك عبدالعزيز قد تلا قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وهكذا، كما قال الريحاني: «رحل ملكٌ كانت رعيته تُطيعه، وتخافه، وتولَّى ملكٌ كانت رعيَّته تُطيعه، وتحبه».

إنَّ عبدالعزيز أحبَّه رجاله، وأخلصوا له، فبنى بهم مُلكًا، وأسَّس بهم مجدًا، إلا أنه مع سيطرته على الحجاز كان هناك إقليمٌ آخر لا بُدَّ من الإمساك به.

- وفي الفصل القادم بطولةٌ أخرى وعظمةٌ ثانيةٌ حول ذلك المكان، فإنها آخر قصة من ملاحم توحيد المملكة العربية السعودية, (خاتمة البداية).

الفصل الثاني عشر

خَاتِمَةُ البدايةِ

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

إحدى شركات

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

قال الـرّاوي: إن الإدريسـي كتـب للـوالي التُّركـي في عسـير، يُخـبره أنَّ الإمـام يحيَـى راسـلَه، وطلـب منـه أن يتحـد معـه، وأن يتفـق وإيـاه ضـد تركيـا وحاميتهـا في عسـير، وأنـه لم يُجب الإمـام علـى رسـالته، وطلـب الإدريسـي من الـوالي التركـي إعطـاءه مدفعـين، وسـوف يكتـب بعـد ذلـك إلى الإمـام يدعـوه إلى العُـدول عـن فكرتـه، وإن لم يَرجـع عنهـا فإنـه مستعدٌّ للزحف عليه وتأديبه.

خـلافٌ وأطمـاعٌ، وخـوفٌ وحـذرٌ، ويومًـا أنـا معـك وغـدًا ضـدُّك، ولم يتفـق أولئـك الرجـال، وعاشـوا فـترات مـن الحـروب والخوف، وكلٌّ يتوجَّس من الآخر، وكلٌّ يرتاب من الثاني، وتتطور الأمـور، ويكـون الصـدام المسـلح، فيومًـا بـين الحاميـة التركيـة والأدارسـة، وشـهرًا بـين الإمـام يحيَـى والأدارسـة، وأحيانًـا بـين حكومـة الحجـاز والأدارسـة، وعامـةُ النـاس يذهبـون وقـودًا لتلـك الخلافـات، وحطبًـا لتلـك النزاعـات! ألا مـا أشـقَّ تلـك الفـترات! ومـا أمـرَّ ذلـك الزمـان!

إنَّ جازان وصَبيا وما حولهما تجاذبتهما الأهواء، وعاشت فتراتٍ من الخوف والرعب والفقر والنهب.

إمام اليمن يقول: تهامةُ جزءٌ من مملكتي.

وحكومة الحجاز تقول: تهامةُ تابعةٌ للحجاز.

أما آل عائض فيقولون: تهامةُ امتدادٌ لجبال عسير.

ودارت الأيام، وشَالت كفَّة الميزان حكومات، ووضعت أخرى، وانتصرت أمةٌ في الحرب العالمية، وخسرت أمةٌ ثانيةٌ، وكانت تُركيا من الدول الخاسرة، ومن الشعوب المزقة، ورحل الأتراك من عسير، وسيطر بطل الجزيرة وصَقرها على عسير، وأعاد ذلك الإقليم إلى سابق عهده، وعيَّن له الأمراء، ووضع له الأنظمة، وبقيت التهائم وما هو امتدادٌ لجبال عسير، ووجد الإدريسي أنه بين نارين، فحكومة الحجاز ترنو، وتتطلع، والإمام يحيى في اليمن يترقب، ويتحين. والويلُ للخائف، والهَمُّ للضعيف.

وصار الإدريسي يبحث عن سند يجدُ عنده الوفاء والشهامة، وعن عَضدٍ يلقَى لديه المروءة والكرامة، فرأى صقرًا أطلَّ من الجبال الشاهقة فوق تهامة، وشاهد أسدًا في تلك المنطقة الملاصقة، فوجد لديه القوة والمَنَعَة، ولجأ إليه، فلبَّى

الملك عبدالعزيز الطلب، واستجاب للنداء، وصارت بين الرجلين مُراسلات ومُكاتبات، انتهت بتوفير الحماية للإدريسي من قِبَل الملك عبدالعزيز، فتحققت له الهَيبة والمَنَعة.

واستمر الإدريسي مَنيع الجانب، مرهوب السلطة حتى وفاته سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م، وبعد وفاة هذا الداهية اضطربت أحوال الأدارسة؛ فقد وَليَ الأمر بعده ابنه علي، وكان فيه ضعفٌ وخَوَرٌ، وعاجله الإمام يحيى، فانتزع منه الحُديدة، وتوغل في الساحل شَمالاً حتى وصل إلى مَيدي، وتدارس أهل تلك المنطقة الرأي، وأيقنوا أن الابن لا يتَّصف بسمات الزعامة، ولا بُدَّ من تنحيته وإبعاده، واتصلوا بعمه الحسن بن علي، الذي كان أكفأ وأقدر من ابن أخيه، وبايعوه بالإمارة وتولِّي شؤون السُّلطة.

وجزم الحسن بن علي بحاجته إلى الملك عبدالعزيز؛ فإمام اليمن يترقب، ويتحين، وقد اقتطع جُزءًا من إمارته، ولهذا جدَّد الولاء، واتصل بالملك عبدالعزيز، وعقد معه اتفاقيةً في مكة المكرمة عام ١٣٤٥هـ، وتقضي هذه الاتفاقية بحمايته من أي اعتداء، وأن يكون للملك عبدالعزيز الشؤون الخارجية، وللحسن إدارة بلاده في الداخل، ويساعده في أعماله مندوبٌ من الملك عبدالعزيز، وعملَت الأطراف بالاتفاقية، ولكن حكومة

الحسن لم تستطع السيطرة وضبط الأمن والإدارة والجباية، وتطورت الأمور من سيِّئ إلى أسوأ.

وصارت مُكاتبات بين الملك عبدالعزيز والحسن الإدريسي، وعلى إثرها أبرق الحسن إلى الملك عبدالعزيز في ١٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، يقول: «كُتُبكم وصلت، وتذاكرنا مع وفدكم، فنقرِّر بموافقتنا ورضانا إسناد إدارة بلادنا وماليتنا إلى عُهدة جلالتكم».

إنها البطولة والعظمة، صيَّرت الأقاليم تنشُدُ عَون الملك عبدالعزيز، وتطلب حمايته، وتخطُب وُدَّه، وأصبح أمراؤها يجدون عنده المكانة والمنزلة، والتقدير والإكرام، وأضحَت المهابة سمةً من سمات الملك عبدالعزيز، وباتت تسري بين القبائل، وتتناقلها الرُّكبان، وتتحدث بها الرُّواة، وأضحى الوُد يتنامى، وأصبح يتنقل من منطقة إلى أخرى، ومن الشرق والغرب والشمال والجنوب، إلى الوسط والقلب، إلى الرياض وأَسَدِها عبدالعزيز.

إن صبيا وجازان وسامطة ومحايل عَسير وتهامة كلها تتشوق، وتتلهف، تَرنو، وتُنادي، وترمي بأعنَّتها إلى الفارس البطل. وهكذا فالأدارسة سلَّموا، والأهالي ناشدوا، فأصبحت

تلك المنطقة جزءًا من بلاد عبدالعزيز، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومضت الأيام، وتحققت الآمال، وتوحَّدت المملكة العربية السعودية، فلم يبقَ جزءٌ إلا وقد عاد، وارتبط بالرياض، وعمَّ الخير، ورفرف السلام، إلا أن الأيام حَبالَى، تأتي بالعجائب، والزمن يَمضي، وعجلته تدور، وفيه الأسرار والخبايا.

وكم من حاسد أبدَى لك الوُدَّ! وكم من حاقد أظهر لك الحب! والملك عبدالعزيز بَشَرٌ له أعداؤه؛ فأبوه آدم أخرجه حقد إبليس من الجنة. ولقد أجاد الشاعر القديم سعد بن ناشب التميمي حين قال:

فَإِنْ تَهْدِمُوا بِالْغَدْرِ داري فَإِنَّها

تُراثُ كَرِيمٍ لا يُبالِي الْعَواقِبا

أَخِي عَزَماتٍ لا يُرِيدُ عَلَى الَّذي

يَهُمُّ بِهِ مِنْ مَقْطَعِ الْأَمْرِ صاحِبًا

إِذا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ

وَلَمْ يَأْتِ ما يَأْتِي مِنَ الأَمْرِ هائِبا

إِذا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ

وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَواقِبِ جانِبا

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيرُ نَفْسِهِ

وَلَمْ يَرْضَ إِلّا قائِمَ السَّيْفِ صاحِبا

وبينما الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أنهى توحيد بلاده، فجمع الشمل، ولملم الوطن جاءه أن السوء ظهر في تهامة، وأن الحقد أثمر لدى الأدارسة، وأن جهود الحاقدين وجدت صَدًى لدى الحسن الإدريسي، فقد تغيَّر الرجل، وتبدل، وسمع مقولة السُّوء، ونسيَ أنه كان عاجزًا عن القيام بالأعباء، ومالَ إلى المناوئين، واستجاب للمتآمرين.

رحمة الله عليك يا عبدالعزيز، ما أصبرَك! وما أعظمك! تحملتَ ما لا تتحمله الجبال الرواسي!

إن وراءك وقُدّامك أعداءً كثيرين. إنك تحاذر هذا، وتُهادن ذاك، وتضرب الباغي، وتلطم الجاني، وتوحِّد أمة، وتبني مجدًا، وتجهم الإدريسي للأمير السعودي هناك، فهد بن زُعير، وعلم الملك عبدالعزيز أن الحسن وفهد على غير وفاق، فأرسل على الفور بِعثةً للإصلاح بينهما، وأصحبها بعدد من الجنود، وأركب البحر فريقًا من المقاتلين؛ تحسبًا لأي طارئ، وبينما البعثة في الطريق وَثَب الحسن الإدريسي على الأمير

السعودي والموظفين السعوديين، فاعتقلهم قبل أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم.

وبلغ الخبر الملك عبدالعزيز في الرياض، فأمر بتجهيز جيش للزحف إلى صَبيا، وأجرى الإدريسي الاتصالات مع الإيطاليين، ومع اليمن يطلب الحماية والنجدة، ولكن هيهات هيهات! فلعبدالعزيز هيبةٌ ومكانةٌ، وصَولةٌ وزعامةٌ، وسيطرت القوات السعودية على الموقف، وثبتَ الإدريسي مدةً من الزمن، ثم شعر بالضعف، فترك صبيا، ورحل بأقاربه وأهله وخاصته، فدخل اليمن، وحطَّ رحاله في صنعاء.

وانتهت المعارك في أواخر شوال سنة ١٣٥١هـ، ١٩٣٣م، وحين رحل الإدريسي إلى اليمن طلب الإمام يحيى من الملك عبدالعزيز أن يُبقيهم لديه، فوافق الملك على ألا يقوموا بأي نشاط ضدَّه، وأكرمهم الملك عبدالعزيز، فتولى الإنفاق عليهم، وهُم هناك، وشملهم برعايته وهُم لدى الجار القَلِق. وهكذا زالت إمارة الأدارسة شكلًا ومضمونًا، مظهرًا وواقعًا، حقيقةً واسمًا، واكتمل توحيد الوطن.

إلا أنه حين لجأ الأدارسة إلى إمام اليمن، وبقوا لديه، واستقر بهم المقام تحركت الأهواء، وعمل الوشاة، والتقت

الرغبات، ولعلَّ بعضهم زيَّن لبعض، فتحاوروا، واتفقوا على العداء والطمع، وأجمعوا على الإغارة والمخاصمة. إن الأدارسة يحلمون، ويتخيلون، ولكن أنَّى لهم ذلك؟! فقد زال كل شيء، ولم يبقَ إلا التاريخ.

وإمام اليمن له أطماعٌ في عسير؛ فقد حاول سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م ضَمَّ تلك المناطق -ومن ورائها نجران- إلى مملكة اليمن، فاصطدم بالتحالف الذي كان بين الأدارسة والملك عبدالعزيز، ولم تُفلح محاولاته، ثم سيطر في فترة لاحقة على الحُدَيدة، وضَمَّها إلى مملكته. وظنَّ إمام اليمن أن الملك البطل سهل العَريكة، ضعيف الشكيمة، وحسب أن مجاملات الملك له ورسائله التي تصله بين الحين والآخر خَوفٌ وجُبنٌ.

إن البطل عبدالعزيز عظيمٌ في تعامله، سمحٌ في تحاوره، يدفع الشرَّ بالتي هي أحسن، ويردُّ السوء بالذي هو أفضل، فها هو يرسل الوفود تلو الوفود إلى الإمام يَحيى، حتى إن الإمام عامل أحد الوفود بقسوة، فقد أبقاهم عنده في اليمن عشرة أيام لا حديث ولا كلام، وتركهم محجوزين في بيت لا يخرجون، ولا يتحركون، وكأنهم في سجن. إنهم رُسل سلام ومحبة، ودُعاة

صُلح ومودة، فكيف يُهانون؟! وبعد ذلك سمح لهم بزيارته ساعةً، ثم أهملهم شهرًا كاملًا. فأين الكرم والمروءة؟!

وملَّ الوفد، وسَئم الإقامة، ثم أرسل إليهم من يفاوضهم بمطالب لم يطلُب مثلها الحلفاء من ألمانيا، كما يقول الرواة، ورفض الوفد تلك المطالب، فحجزهم الإمام يحيى عند السفر، ومنعهم مخابرة الملك عبدالعزيز بالبرقيات، بعد أن كانوا يخابرونه، ويتلقَّون توجيهاته، وحين انقطعت أخبارهم، وطالت أوبتهم كان جواب الملك البطل إعلان الحرب، ونادى المنادي: إلى الجهاد، إلى الجهاد، وعلم إمام اليمن، فخاف، واضطرب، وأذن للوفد بالسفر، ووصل الوفد، وأبلغ الملك بما تمَّ.

وعلى عادة الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبَ إلى الإمام يحيَى، وحذَّره من التصلب، وأنذره بأن الأعداء يتربصون، وأن الوُشاة يعملون، وأن العاقبة ستكون مُحزنة، وأن النهاية ستكون مُفزعة، ولم يسمع إمام اليمن صوت العقل، فتمادى، وتطاول، واستمر يتحرش، ثم تقدم بجيشه سنة ١٣٥٢هـ إلى جبال جازان، حيث كانت إمارة الأدارسة، وتجاوزها إلى نجران، ووصل الخبر إلى الملك عبدالعزيز، فهاله، واستعظمه، واستقبحه، واستكبره، وكتب إلى الإمام يحيَى: ما الخبر؟ لماذا؟ وكيف؟

وتبادل الزعيمان الرسائل، واتفقا على عقد مؤتمر في أبها، وحضرت الوفود عن كل منهما، وطال الحوار، ولكنهم انصرفوا دون اتفاق، وعادوا أدراجهم دون نتيجة، وتمادى الجيش اليمني، وتوغل مقاتلوه، وعبثوا، ونهبوا، وسلبوا، وقتلوا! ووصل وفدٌ من نجران إلى الرياض، وقابل الملك عبدالعزيز، ودار الحوار الآتي:

يا عبدالعزيز، جئناك من نجران يَحدونا الأمل أن تعطينا مواثيق أجدادك، جئنا لتدرأ الخطر الذي لن يتوقف عند نجران إن تركتَ إمام اليمن يفعل ما يحلو له.

قال البطل: اسمعوا، وأنا أخو نُورة، مثلما أعطاكم أجدادي عُهودهم، فأنا باقٍ عليها، بل على استعداد لأن أكتبها لكم في مواثيق جديدة، عودوا إلى نجران، وناوشوا المُعتدي، وستجدون القوات السعودية في كل ناحية.

ووجَّه الملك البطل إنذارًا ووعيدًا للإمام يَحيى: «يا إمام، إياك إياك، ثُبْ إلى رشدك وحَكِّم عقلك، واسحب قُواتك التي وصل بعضها إلى نجران وفيفا.

يا إمام، عَجِّل بعودة رجالك، إن المُهلة أسبوعان.

يا إمام، إن بعد الأسبوعين حربًا ونارًا.

يا إمام، إن الحكم سيكون للسيف، والفصلَ للأسِنَّة».

إِذا لَمْ يَكُنْ إِلا الأَسِنَّةُ مَرْكَبًا

فَما حِيلَةُ المُضْطَرِّ إِلا رُكُوبُها

وانتهت المُهلة، وجاءت القوات السعودية تتسابق، وكل مقاتلٍ لسان حاله يردِّد قول أبي فراس الحمداني:

فَإِنْ عِشْنا ذَخَرْناها لأُخْرَى

وَإِنْ مِتْنَا فَمَوتَاتُ الرِّجالِ

وانقسمت الجموع إلى فريقين: شرقية، تشتمل على حدود عسير الجبلية ونجران، وغربية، منطلقة من منطقة جازان.

وكان الأمير سعود بن عبدالعزيز قائدًا عامًّا للقوات الشرقية، بينما كان الأمير فيصل بن عبدالعزيز قائدًا عامًّا للقوات الغربية، وتقدمت القوات السعودية، وتصادمت مع جيش الإمام يحيى، وارتبك الجيش اليمني، وانهار، ولم يصمد، وتوغلت القوات السعودية في الأراضي اليمنية، وسيطرت على

كثير من المدن، فاستولت على مَيدي، ثم الحُدَيدة، وبيت الفقيه، وبلاد الزرانيق، والزيديَّة، ومدن أخرى.

واستمر القتال، وجاءت الوفود تنشُدُ الصُّلح، وتعرض الوساطة بين الزعيمين، وقدمَ وفدٌ من كبار الشخصيات العربية إلى الملك عبدالعزيز في الحجاز في الرابع من المحرم عام ١٣٥٣هـ، وعرضوا عليه القيام بالوساطة والصُّلح. وبينما الوفد في ضيافة الملك عبدالعزيز جاءت الاستغاثة والبرقية من الإمام يَحيى، فقد أسقط في يده، وعضَّ أصابع الندم؛ فقواته مُنيت بالهزائم، والقوات السعودية تزحف، وتحتل المدن، الواحدة بعد الأخرى، ورجاله ضاقت بهم الأرض، وكأن المتنبي يقصدهم بقوله:

وَضاقَتِ الأَرْضُ حَتَّى كانَ هارِبُهُمْ

إِذا رَأَى غَيرُ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

ووصلت البرقية الآتية من الإمام يحيى: «كفَى يا عبدالعزيز، أمَرنا بسحب جُندنا، عندكم عبدُالله بن الوزير، تفضلوا -عافاكم الله- بطلبه لعَقد معاهدة أخوية. سحبنا هذه البرقية عن طريق أسمرة، حيث تعطَّلت (طارَ الهواءُ) لدينا. ننتظر جوابكم بواسطة أسمرة»، وكان إمام اليمن يُسمِّي جهاز البرقية (طار الهواء).

وأجاب الملك البطل: «سندعو ابن الوزير، المُهم أن يتم انسحاب الجُند من نجران وإطلاق رهائن الجبال، وتسليم الأدارسة إلينا». إن الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يريد اليمن، ولا يرغبُ في حُكمه، وإنما يريد السلام والوئام، وجاءت البرقية الأخرى من الإمام يحيى بالموافقة على الشروط الثلاثة، وأنه تمَّ الجلاء عن نجران، وأنه صدر الأمر بتسريح رهائن الجبال، وأنه سوف يتم تسليم الأدارسة في الحال، وكرر الإمام الرجاء: «يا عبدالعزيز، أوقف زحف القوات السعودية».

وأبرق الملك عبدالعزيز لقواته بوقف الزحف، واستدعى عبدالله بن الوزير إليه، ووصل ابن الوزير إلى الطائف، وأطلعه الملك عبدالعزيز على برقيات الإمام يَحيى، ثم بدأت المفاوضات بين الوفد السعودي برئاسة الأمير خالد بن عبدالعزيز والوفد اليمني برئاسة عبدالله بن الوزير، وجلس المتحاورون، وهم فريقٌ منتصر في الحرب، وآخرُ منهزمٌ، فكيف سيكون الحوار؟ هل يُملي المنتصر شروطه؟ وهل تنسحب القوات السعودية من المناطق التي احتلتها، ويعود الجنود السعوديون، ويُسَلِّم القائد الظافر المدن التي سيطر عليها؟ وهل يدفع الإمام يحيى تعويضات الحرب، ويتحمل الخسائر التي كان سببًا في حدوثها؛ فهو البادئ، وهو الجاني؟

إنه لم يحدث في التاريخ أن يقبل المنتصر بالانسحاب دون أي شروط أو مطالبة بالتعويض.

يقول الزركلي: «اعلم أن عبدالعزيز لما دعا إليه ابن الوزير، وأطلعه على البرقيات، وأملى إليه النقاط الأولية التي بُنيت عليها المعاهدة كان فيلبي خارج المكان المعقود فيه الاجتماع، ولما سمع فليبي أن الملك عبدالعزيز قرر الانسحاب من أكثر المواقع التي احتلَّها ولداه سعود وفيصل وقف يبكي عند باب الصِّيوان، فدعاه الملك، وسأله: لِمَ تبكي؟

فقال: على جهودٍ أضعتَها، وأموالٍ بذلتَها، حتى صار اليمن في قبضة يدك، ثم تتخلى عن كل ذلك.

فقال الملك: لا نُريد اليمن، اليمنُ لحاكِمه».

وقال يوسف ياسين: «بينما كُنا نعمل في كتابة المعاهدة مع اليمن لاحت لي فرصةٌ سألت بها الملك، فقُلت: ألا يمكنُ فرضُ غرامةٍ على يَحيَى؟

فضحك، وقال: لو قامت القيامة لم يَخرج من يَده دانق».

وكان تسامح الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيد الموقف، فقد اتفقت الأطراف على الصُّلح، وسُمِّيت تلك الاتفاقية معاهدة

الطائف؛ حيثُ وقَّعها رئيسا الوفدين السعودي واليمني في السادس من صَفَر عام ١٣٥٣هـ، ١٩٣٤/٥/٢٠هـ، ثم وقَّع عليها الملك عبدالعزيز، وسافر بها من جدة وفد المصالحة العربية، ومعه الوفد اليمني ووفدٌ سعودي، ووقَّع عليها الإمام يَحيى، وتمَّ تبادل نُسخ الاتفاقية، وانسحبت قوات كلٍّ من الطرفين إلى الأراضي التي حدَّدتها المعاهدة، وحلَّ السلام، وساد الوئام.

وهكذا أُسدِل الستار على الكفاح الحربي، وطُوِيت صحائف الكرِّ والفرِّ، وتحققت الوحدة الوطنية، وسادت الرابطة الأخوية بين أبناء المملكة العربية السعودية، وانتهت بداية توحيد الوطن، وصار الهمُّ بعد ذلك بناء المملكة وتقوية الروابط بين أقاليمها، وزيادة التماسك والتلاحم، وكان الفضل لله أولًا، ثمَّ للملك البطل عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، طيَّب الله ثراه.

إنه الرمز الذي نفاخر به، والبطل الذي نَعتز بذكره، والداهية الذي نترحَّم عليه، وأحسب المتنبي يَعنيه بقوله:

تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُفْتَخِرٍ

فِي الْحَمْدِ حاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

رَحمَ الله البطل الذي ظلَّ زهرة شبابه وأغلب عُمره على صَهوة جواده، وفوق ظهر راحلته متنقلًا بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، يُوحِّد، ويلملم، يجمعُ، ويُقرِّب.

وأختم هذا الكتاب بروايةٍ تُصور شخصية الراحل، وتعلقه بالله، والتجاءه إليه، في كل شدةٍ وكرب.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٦٣]. ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. يقول الراوي، وهو من أهالي مدينة الرياض، وممن يوثَق بكلامه، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز السليمان عن والده:

«صحِبْنا الملك عبدالعزيز في إحدى غزواته، وكان الوقت صيفًا، وطال بنا السير، وقلّ الماءُ على الركب، واشتدت حاجتنا إليه، فقد جفّت الشفاه، وتَيبست الألسن، وعَطشت الإبل، وأصابها الهيامُ، وحلَّ بنا الكرب والضيق، ثم لاح الفرج حين رأينا على البُعد مَوردًا للمياه، فأسرعنا إليه، ولكن حين وصلنا،

ونزلنا وجدنا المورد قد جَفَّ، ونَضبَ، وعند ذلك تحسرنا، وزاد بلاؤنا، واحترنا ماذا نعمل؟

ولكن رأينا الملك عبدالعزيز يبتعد قليلًا عن الركب، ثم يَشرع يُصلي، ويتوجه إلى الله، ويتوسل إليه، وينتحب بين يديه يسأله الغوث، ويطلبه الغيث، وما هي إلا لحظات، وإذا بالسحب تتكون، ثم ينهمر المطر، وترتوي الأرض، فيشرب الركب، ونشكر الله على نعمته، ثم غادرنا المكان، وحين ابتعدنا قليلًا، لم نجد للمطر أثرًا، ولم نلقَ للماء ريحًا.

رَحِمَ الله الملك الراحل، فقد أخلص لله، فأعزَّه، وصدقت نيته مع الله، فأكرمه، وتحقق لنا -الأحفاد- ما نعيشه الآن من عزٍّ شامخٍ، ومَجدٍ باذخٍ فوق ثَرَى الوطن الغالي؛ وطننا الحبيب، المملكة العربية السعودية.

المراجع الأساسية لهذا الكتاب

١- بعثة إلى نجد، فيلبي، ترجمة د. عبدالله بن صالح العثيمين، توزيع مكتبة العبيكان-الرياض.

٢- البلاد العربية السعودية، فؤاد حمزة، مكتبة النصر الحديثة -الرياض.

٣- تاريخ البلاد العربية السعودية، د. منير العجلاني، دار الشبل -الرياض.

٤- تاريخ نجد الحديث، أمين الريحاني، دار الجيل -بيروت.

٥- حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر-بيروت.

٦- خمسون عامًا في جزيرة العرب، حافظ وهبة، الطبعة الأولى، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة.

٧- شبه جزيرة العرب/ عسير، محمود شاكر، المكتب الإسلامي -بيروت.

٨- شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

٩- الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، مكتبة العبيكان -الرياض.
١٠- عسير في ظلال الدولة السعودية الأولى، د. عبدالله بن محمد بن حسين أبوداهش، إصدار نادي أبها الأدبي.
١١- عنوان المجد في تاريخ نجد، للشيخ عثمان بن عبدالله بن بشر، الطبعة الرابعة، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز.
١٢- كنت مع عبدالعزيز، إعداد مجموعة من المؤلفين، الطبعة الثانية، دار مبين للنشر والتوزيع - الرياض.
١٣- لسراة الليل هتف الصباح، عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري، الطبعة الأولى، رياض نجيب الريس.
١٤- معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد، د. عبدالله بن الصالح العثيمين، الطبعة الثانية، توزيع مكتبة العبيكان -الرياض.
١٥- ملوك العرب، أمين الريحاني، دار الجيل -بيروت.
١٦- موجز تاريخ وأحوال منطقة عسير، د. عبدالله سالم موسى القحطاني، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، الناشر المؤلف.

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

إحدى شركات

العبيكان للاستثمار
Obeikan Investment Group

من إصداراتنا

تواصل معنا
CONTACT US

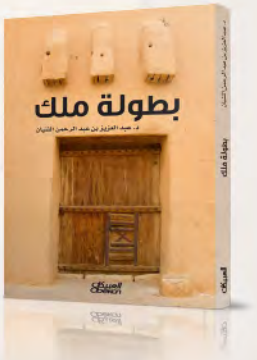

قصةُ بطولة، وسيرةُ شجاعة لملك صارع الفرسانَ، فكان أصبرَهم، وفاوض الدُّهاة، فكان أفطنهم، واستعاد مُلكاً، وبنى مجداً، ووحَّد أُمة، وآتاه الله سُلطاناً، فصار نعيماً لشعبه، وخيراً للأحفاد والأجيال.

هذا البطل تحدثت عنه كتب التاريخ، وقالت عنه كتب السِّير، وروى معاصروه الكثيرَ من مواقفه، والعجيب من دهائه.

العبيكان للنشر
Obeikan Publishing

نلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub

- القصص التاريخية العربية.
- السعودية

ISBN: 9786030270224